نوادر التراث

أسرار ترتيب القرآن

للحافظ جلال الدين السيوطي

٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ



ضياء سعيدة

دراسة وتحقيق

عبد القادر أحمد عطا

مرزوق علي إبراهيم

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الادارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد للَّه الذى أنزل الكتاب متناسبًا سوره وآياته ، متشابهًا فواصله وغاياته ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه الذى تمت كلماته ، وعمت مكرماته وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده الذى خُتِمَتْ به نُبُوَّاتُهُ ، وكملت برسالته رسالاته ، توالت عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأحبابه صلواته ، وتواتر تسليمه وبركاته ما دامت حياته وبقيت ذاته وصفاته . . وبعد :

فهذا كتاب لطيف ، تناول فيه مؤلِّفه من علوم القرآن ، ألا وهو ترتيب السور وتناسقها ومناسباتها ، وإيضاح ما فى ذلك من إعجاز وبيان ومقاصد ، وسوف يتجلَّى لنا من خلال عرض هذا الكتاب الدقائق التى فتح اللَّه بها على مصنفه ، وتلكم اللمحات الزكية التى أكثرها من نتاج فكره ، وولاد نظره ، وغير ذلك من فوائد ، يجنيها القارئ .

وقد قلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ؛ وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى [(١)] فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

وقال بعض الأئمة : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، لِئَلاَّ يكون منقطعًا .

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين ، أو كثير منهم ، وفوائده غزيرة ، قال

(١) ترجمته فى مقدمة المصنف ، وقد أكثر السيوطى النقل عنه

القاضى أبو بكر بن العربى [1] : **ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح اللَّه عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حَمَلة ، ورأينا الخلف بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين اللَّه ورددناه إليه** [2] .

ثم إنك لا ترى علمًا هو أرسخ أصلًا ، وأبْسَق فرعًا ، وأحلى جَنَى ، وأعذب وِرْدًا ، وأكرم نِتاجًا ، وأنورَ سِراجًا ، من علم البيان ، الذى لولاه لم تَرَ لسانًا يَحوك [3] الوَشْىَ ، ويصوغ الحَلْىَ ، ويَلفظُ الدُّرَّ ، وَينْفُثُ السِّحر ، ويَقْرى [4] الشهدَ ، ويريك بدائع من الزَّهر ، ويَجْنِيكَ الحُلْو اليانعَ من الثَّمر ، والذى لولا تَحفِّيه [5] بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويرُه إيَّاها ، لَبقيت كامنة مستورة ولَمَا اسْتَبْنَت لها يد الدهر [6] صُورة ، ولاستمرَّ السِّرارُ [7] بأهلَّتها واستولى الخفاءُ على جملتها ، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء [8] .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام [9] : **المناسبة علم حسن ؛ ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر** [10] .

---

(١) ترجمته فى مقدمة المصنف أيضًا .
(٢) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٥ - ٣٦) .
(٣) أى : ينسج .　　　(٤) يقرى : يجمع .
(٥) تَحفَّى بفلان : احتفل .
(٦) يقولون : لا أفعله يد الدهر ، أى لا أفعله أبدًا .
(٧) السِّرار بالكسر ، اختفاء القمر فى آخر ليلة فى الشهر .
(٨) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى ٥ - ٦ .
(٩) هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ، والملقب بسلطان العلماء ، توفى سنة ٦٦٠ هـ ، ترجمته فى طبقات الشافعية (٥/ ٨٠) .
(١٠) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٧) .

وقال برهان الدين إبراهيم البقاعى[1] : « **وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره : علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه : أجزاء الشىء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته الاطلاع على الرتبة التى يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه ، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذى هو كلحمة النسب ، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعانى لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ؛ فلذلك كان هذا العلم فى غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو** »[2] .

أمَّا ترتيب السور : **فقد اختلف العلماء فى ترتيب السور** :

* فالقول الأول : **إنه توقيفى ، تولاه النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذى لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذى لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع .**

* والقول الثانى : **إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ، بدليل اختلاف مصاحفهم فى الترتيب ، كمصحف ابن مسعود ، ومصحف أُبىّ .**

* والقول الثالث : **إن بعض السور ترتيبه توقيفى ، وبعضه باجتهاد من الصحابة ، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور فى عهد النبوة ، فقد**

---

(١) هو الإمام العالم العلامة ذو الفنون العديدة ، والتصانيف المفيدة ، والأقاويل السديدة ، أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط على بن أبى بكر البقاعى ، توفى سنة ٨٨٥ هـ ، ترجمته فى : الضوء اللامع (١/ ١٠١) ووجيز الكلام (٣/ ٩٠٩ ، ٩١٠) .
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١/ ٥) .

ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل فى حياته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وقد ناقش بعض العلماء [١] هذه الآراء الثلاثة ، وانتهى إلى ما يلى :

- أن الرأى الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يجمع القرآن جمعًا مرتبًا ، فلما جمع فى عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد ، واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لتمسكوا بها .

وحديث ابن عباس رضى الله عنهما : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينها . . . » [٢] .

وهذا الحديث يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور ، كأن عثمان كان يثبتها برأيه ، وينفيها برأيه ، ولذا قال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : « إنه لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدلُّ على عدم الترتيب بين هاتين السُّورتين فقط [٣] .

- أما الرأى الثالث : الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى ، وبعضها ترتيبه اجتهادى ، فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على

---

(١) هو الشيخ : مناع خليل القطان فى كتابه : مباحث فى علوم القرآن ١٤١ - ١٤٢ .
(٢) تخريج الحديث فى مطلع سورة الأنفال .
(٣) وقد ذهب البيهقى إلى ذلك حيث قال : « كان القرآن على عهد النبى صلَّى الله عليه وسلم مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان رضى الله عنه .

ما هو توقيفى ، أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى . إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى . مع أنه قليل جدًّا .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات [(١)] .

وقال أبو بكر بن الأنبارى [(٢)] : « أنزل اللَّه القرآن كُلَّهُ إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابًا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبى صلى الله عليه وآله وسلم على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن قدّم سورة أو أخَّرها فقد أفسد نظم القرآن » [(٣)] .

وقال الزركشئ : قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهم من قال : لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة ؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا ، فالمصحف كالصحف الكريمة على ما فى وفق الكتاب المكنون ، مُرَتَّبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتْلُ كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقًا ؛ بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البيّن أسلوبه ، ونظمه الباهر فإنه ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

قال : والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ؛ ما وجه مناسباتها لما قبلها ؟ ففى ذلك عِلمٌ جَمٌّ ، وهكذا فى السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سِيقت له .

---

(١) مباحث فى علوم القرآن ، لمناع القطان (١٤١) وما بعدها .

(٢) ترجمته فى مقدمة المؤلف .

(٣) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٠) ، والجامع لأحكام القرآن (١/ ٦٠) ، والإتقان (١/ ٦٠) .

وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى ؛ كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] وكافتتاح سورة فاطر بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ **أيضًا ، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله :** ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ : ٥٤] ؛ **وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح :** [﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾] ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به [﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾] .

وكافتتاح البقرة بقوله : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ **إشارة إلى** ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ فى قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ **؛ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب .**

وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة(١) **.**

. . . ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها (الماعون) ؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ؛ فذكر هنا فى مقابلة البخل : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ : أى الكثير .

وفى مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَلِّ ﴾ **أى دُمْ عليها .**

وفى مقابلة الرياء ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ **: أى لرضاه ، لا للناس .**

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٨) .

وفى مقابلة الماعون : ﴿وَٱنْحَرْ﴾ ؛ وأراد به التصدق بلحم الأضاحى ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة [1] .

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد ؛ لأن التسبيح حيث جاء مقدمٌ على التحميد ؛ يقال : سبحان اللَّه ، والحمد للَّه [2] .

هذا ، وأسأل اللَّه أن ينفع بهذا العمل ، وأن يرد الأمة الإسلامية إلى كتابها الكريم ، وهذا الفرقان ، معتصمة به ، تالية له ، ومتدبرة لما فيه ، ومتمسكة بسنة نبيِّها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم ، فلا معين إلا اللَّه ، ولا دليل إلا رسول اللَّه ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه ، ولا عزَّ لنا إلا فى إسلامنا ، وصلَّى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

مرزوق على إبراهيم

فى مساء الجمعة
٢٦ محرم ١٤٢٢ هـ .
٢٠ أبريل ٢٠٠١ م .
مدينة نصر – القاهرة

* * *

(١) مفاتيح الغيب (تفسير الرازى) (٨/ ٧٠١) وكذا البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٩) .
(٢) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٩) .

نُبْذَةٌ عَنْ مُصْحَفِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

من المآثر الخالدة لذى النُّورَيْن ما فعله حين جمع الناس على مصحف واحد ، وجمع القرآن فيه ؛ وبذلك صلح أمر الناس من السلف والخلف ؛ ولولا الذى فعله عثمان رضى اللّه عنه لألحد الناس فى القرآن إلى يوم القيامة ، كما قال الحسن البصرى .

قال الزركشىُّ : **وقد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف ؛ وليس كذلك ، بل أول من جمعها فى مصحف واحد الصدِّيق ، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف فى القراءة بتحويله منها إلى المصاحف**[(١)] .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى[(٢)] فى « **الانتصار للقرآن** » : « **لم يقصد عثمان رضى اللّه عنه قَصْدَ أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ؛ وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أُثبِتَ مع تنزيل ، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بَعْدُ** »[(٣)] .

والذى حمل الصحابة رضوان اللّه عليهم على جمع القرآن ما جاء فى الحديث أنه كان مفرقًا فى العُسب ، واللِّخاف وصدور الرجال ، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته فجمعوه وكتبوه ، كما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، من غير أن يُقدِّموا شيئًا أو يُؤَخِّروا ، وهذا الترتيب كان منه

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٣٥) وما بعدها .

(٢) ترجمته فى مقدمة المصنّف .

(٣) الانتصار للقرآن ، للباقلانى (١/ ١١ ، ١٢) وتناول المؤلف فضل أبى بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم جميعًا فى كتابه هذا (١/ ٩٧) ، وما بعدها .

صلى الله عليه وسلم بتوقيف لهم على ذلك ؛ وأن هذه الآية عقب تلك الآية ، فثبت أن سعى الصحابة فى جمعه فى موضع واحد ، لا فى ترتيبه ؛ فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذى هو فى مصاحفنا الآن ، أنزله اللَّه جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر : ١] ، ثم كان ينزل مفرقًا على رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم مدة حياته عند الحاجة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة ؛ وكان هذا الاتفاق من الصحابة سببًا لبقاء القرآن فى الأمة ، ورحمة من اللَّه على عباده ، وتسهيلاً وتحقيقًا لوعده بحفظه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وزال بذلك الاختلاف ، واتفقت الكلمة .

ولقد كانت قراءة أبى بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة ، كانوا يقرءون القراءة العامة ، وهى القراءة التى قرأها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين فى العام الذى قبض فيه ، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده الصديق فى جمعه ، وولاّه عثمان كتابة المصحف .

وروى عن علىّ رضى اللَّه عنه أنه قال : رحم اللَّه أبا بكر ! هو أول من جمع بين اللوحين ، ولم يحتج الصحابة فى أيام أبى بكر وعمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ؛ لأنه لم يحدث فى أيامهما من الخلاف فيه ما حدث فى زمن عثمان ، ولقد وُفِّق لأمر عظيم ، ورفع الاختلاف وجمع الكلمة ، وأراح الأمة .

وقد قال علىّ رضى اللَّه عنه : لو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل[١] .

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) .

فـائـــــدة :

من الأدلة التى ساقها الباقلانى على صحة نقل القرآن وصحة تأليفه وترتيبه :

« ومما يدل على ذلك قـوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧] وقد ثبت بإجماع الأمة مِنَّا ومنهم أن اللَّه تعالى لم يرد بهاتين الآيتين أنه تعالى يحفظ القرآن على نفسه ولنفسه ، وأنه يجمعه لنفسه ، وأهل سمواته دون أهل أرضه ، وأنه إنما عنى بذلك أنه يحفظه على المكلفين للعمل بموجبه ، والمصير إلى مقتضاه ومتضمنه ، وأنه يجمعه لهم فيكون محفوظًا عندهم ، ومجموعًا لهم دونه ، ومحروسًا من وجوه الخطأ والغلط والتخليط والإلباس ؛ وإذا كان ذلك كذلك وجب بهاتين الآيتين القطع على صحة مصحف الجماعة ، وسلامته من كل فساد ولبسٍ ؛ لأنه لو كان مغيرًا أو مبدلاً أو منقوصًا منه أو مزيدًا فيه ، ومرتبًا على غير ما رتبه اللَّه سبحانه ؛ لكان غير محفوظ علينا ، ولا مجموع لنا ، وكيف يسوغ لمسلم أن يقول بتفريق ما ضمن اللَّه جمعه ، وتضييع ما أخبر بحفظه »[١] .

* * *

(١) الانتصار للقرآن ، للباقلانى (١/ ٦٣) .

عملنا في الكتاب

كان العمل فى تحقيق هذا الكتاب على النهج التالى :

* قابلنا النسخة المطبوعة بتحقيق الأستاذ عبد القادر عطا (وهى نسخة دار الكتب المصرية) على نسخة دمشق [(١)] المطبوعة ، التى اعتمد محققها على نسخة الظاهرية .

* رمزنا لنسختنا المصرية بـ « المطبوعة » .

* رمزنا لنسخة دمشق بـ « ظ » ، وتميزت هذه النسخة بأنها أتم من النسخة المصرية فى الغالب ، وفيها ترضية على الصحابة ، وبعد ذكر : النبى ، أو الأنبياء يأتى بعد ذلك : « عليه السلام » أو « عليهم السلام » وكذلك حينما يأتى ذكر العلماء ، يأتى بعدهم بـ « رحمه اللَّه » فضلًا عن الثناء على اللَّه تعالى ، إذا ذكر اللَّه عز وجل .

* وضعنا الزيادة من نسخة « ظ » بين معقوفين ، وكذلك إذا كانت هناك إضافة من الأصول ، أو تتمة لنقص وضعناها كذلك بين معقوفين .

* أبقينا التعليقات التى علق عليها الأستاذ عبد القادر عطا ، وإن كان فيها خطأ صوَّبناه ، وما كان من نقص أتممناه .

* الرجوع إلى المصادر التى أخذ عنها المؤلف ، وكذلك المصادر التى دارت حول هذا الموضوع ، وكل ذلك ساعد على تقويم النص ، وخروجه بشكل أتم مما كان عليه سابقًا .

* قمنا بتصحيح ما وقع من تصحيف ، وتحرير ما وقع من تحريف فى النص .

---

(١) تحقيق عبد الله محمد الدرويش - دار الكتاب العربى - سوريا - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

عظمة القرآن ووحدته الموضوعية

بقلم : عبد القادر أحمد عطا

قالت الجن حينما سمعوا القرآن من النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (١) واهتزت عقيدة الشرك فى قلب رجل من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة حينما سمع بعض آياته من الرسول ﷺ ، **فقال** : « ما هو بقول البشر » ، وفزع أئمة الكفر من قريش حينما شاهدوا تأثير القرآن على القلوب ، فقالوا لزعمائهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢) ، وسعى أهل النباهة من فتيان العرب من أمثال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه إلى رسول اللّه ﷺ فقال : « يا رسول اللّه ، علمنى من هذا القرآن » حينما استأسر قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الإسلام .

تلك واحدة من دلائل عظمة القرآن هى : سلطانه الروحانى الخفى على القلوب ، وولايته المطلقة على مدارك الإنس والجن على السواء ، وجاذبيته المضيئة لقلوب المهتدين والجاحدين جميعًا .

وقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية للنفوس ، ولكنها لم تصل فى ماضى الزمان ، ولن تصل فى مستقبله إلى أعماق الروح ، ولا إلى مستقر الإيمان واليقين ، ولا إلى قمة التضحية فى سبيلها بالمال والنفس ، كما وصل الرواد الأوائل للإسلام إيمانًا بالقرآن ، ويقينًا بسلطانه ، واستشهادًا فى سبيل دعوته ، واحتمالاً لما لا يطيقه بشر فى سبيل إعلاء كلمته .

تلك دلالة لا شك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ،

---

(١) سورة الجن ، الآيتان : ١ ، ٢ . (٢) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ، وجبروت التعذيب الذى تسلطوا به على المؤمنين فى مطلع الدعوة ، فما لبثوا أن فجروا جديدًا من ينابيع الإيمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووحدوا شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول ﷺ بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ، فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذى دارت رحاه على رمال جزيرة العرب ، والذى طاشت فى نهايته أحلام المعارضين على وفرة المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من المال ، وإعواز فى السلاح يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وإيمان راسخ بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت إلى الأبد شوكة الكفر ، وشمخ إلى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الإلحاد الضارية فى ميدان الحرب وفى ميدان الفكر ، فلم تزده تلك الهجمات إلا انطلاقًا إلى آفاق جديدة من الأرض وانبلاجًا لنوره على صدر الزمان ، وأعماقًا بعيدة لجذوره فى القلوب ، ولئن ذبلت فى بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات المتوالية واستجابة المؤمنين إلى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول إلا غفوة أعقبها استجماع للقوة ، ورؤية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل الإلحاد تمزق وخيبة وانحلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين إلى ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن تسلط قريش ، وجبروت الروم ، وجدل الفرس ، وسلاح الصليبية ، ولؤم اليهودية العالمية ، وأخيرًا عانت بريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان من أبناء الإسلام أعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الأعزة على أوهام الشيوعية ، فأعزوا فى سبيل ذلك أهل الأهواء ، ولكن أولئك جميعًا ذلوا

أمام صلابة الحق فى القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل الدولى عن النيل من إيمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذى لا يستطيعه إلا الكتاب الحكيم : إنه كتاب حضارة تندرج تحت لوائه الأمم والشعوب ، وتستسلم حضاراتها لحضارته فما تلبث أن يحتويها الإطار الشامل للإسلام الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلاً وحكمًا بين الجميع ، فلا عنصرية ولا عصبية ، ولا استمساك بالذات ، بل هو إنكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيدًا عن أى لون من ألوان الامتهان .

فعظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدى الشعوب أن يتبعوه ، ولا الحضارات أن تذوب فى حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمح الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دساتير الحضارة ، ويعلن حربه الضارية على الظلم وامتهان الإنسان للإنسان ، وامتهان الإنسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن عفن اللؤم البشرى ، وعن الحبائل التى ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون اللّه ورسوله لا لشىء إلا لأن الإيمان بهما يقف سدًّا منيعًا أمام أطماعهم وشهواتهم التى لا تدع قيمة إلا حطمتها ، ولا مثلاً أعلى إلا شوهته وأذلت أهله ، والداعين إليه .

وعلى مر القرون ما زال كبار المفكرين فى العالم كله يشيدون بتلك السمة التى استعصى عليهم الجهر بها هذا الردح الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة فى بناء الحضارات إذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين

جمهور المؤمنين ، وهو الأمر الذى أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرصوا عليه ، وضمن لهم فى سبيل ذلك تمكينًا سريعًا ، وزحفًا منصورًا ، وعونًا من جند الله يفوق كل قوة وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الإلهى من القلوب حبًا لا يقاوم للقرآن .

وتدعيمًا لذلك فقد كان القرآن دستورًا حضاريًا للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكى الدقيق ، والدليل على أن تحويل القرآن إلى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعصا السلطان ، وإنما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعملوا بما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا ، وأقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما على حفظ البقرة ثمانى سنين .

ويضيق بنا المقام إذا استقصينا أقوال الصحابة فى هذا الصدد ، ولكن الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية فى الانتشار والتأصل نابعة من هذا الينبوع العريق فى الأصالة ، فلا تتعثر الحضارات إلا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدساتير فى ذاتها ، أو فى إقناع الشعوب بجدواها ، وفى كلا الحالين تختلف الشعوب مع السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لا تسرع الحضارة فى سيرها نحو غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلاً عن النفقات الهائلة التى

يتطلبها إيقاف التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضى إلى غايتها .

أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ، فالقرآن هو الفطرة البشرية التى لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع لجميع الناس بجدواه وعظيم فائدته ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة الملائمة لجميع الأجناس إلى الدرس والتدبر الذى لا يزيد الناس إلا إيمانًا وإمعانًا فى استكشاف الحِكَم التى لا تنتهى ، ولا تضعف فى قوتها على كثرتها الكاثرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الإسلامية إلى جانب الاقتناع به عاملاً رئيسيًا من عوامل السرعة فى البناء ، والقوة فى الأسس التى تقوم عليها الحضارة وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتياد آفاق جديدة لإقامة صرح الإسلام على أرضها .

لقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[1] ونعى على من لا يتدبرونه **فقال** : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ ﴾[2] ولا يمكن أن يكون التدبر إلا مقرونًا بفقه المعانى والأهداف والحكمة ، ولهذا لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معانى القرآن إلا نادرًا ، ولم يتهرب المخالفون للشريعة من الحدود المشروعة لأمثالهم ، بل تقدموا إلى رسول الله ﷺ طالبين إقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف ، والمشروعة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجديته فى طلب التطهير من الذنب ، حيث وصل هذا التطهير إلى الموت رجمًا بالحجارة ، وما كان ذلك إلا لأن هؤلاء قد وصلوا إلى درجة من الوعى القرآنى والإسلامى لم يصل إليها واضعو الدساتير الأرضية فضلاً عن الشعوب المحكومة بها .

---

(١) سورة (ص) ، الآية : ٢٩ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

تلك عظمة لا تساق إليها الشعوب بالعصا ، وإنما تقوم على رعايتها الشعوب بمحض الإيمان والغيرة والعلم والتطلع إلى مزيد من النجاح ، الأمر الذى استطاع به الرسول ﷺ وخلفاؤه بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لإصلاح مدينة واحدة تحت لواء دستور أرضى فى أى دولة من دول العالم ، وفى جميع أحقاب التاريخ .

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذى يفسر لنا الحوافز التى شرعها الله تعالى لحفَّاظ القرآن ، والتالين له فى مختلف الأوقات لا سيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الإنسان فى هذا الوقت إلى درجة عليا من الصفاء الذى يهيئ لمن يصاحب القرآن فيه فهمًا لا يمكن أن يتيسر فى وقت آخر . . حتى لقد شجع النبى ﷺ من يقرأ القرآن بلا فهم تذرعًا إلى دفعه إلى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريبًا لهم على أن يألفوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره ، وكان القرآن شرطًا لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه ، إلى آخر ما هو مسطور فى السُّنة النبوية المشرقة .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن إجماع أهله حجة على الناس جميعًا فى مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمى لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة إلا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذى يتصل بالقرآن من دلائل حجية إجماع المسلمين على العالم قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (١) ، ولا خروج إلى النور إلا بالقرآن ، فإذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة إجماعهم إما بقاء الناس فى الظلمات ، وإما إعادة الناس من النور إلى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، إذ أمة القرآن بقيادة رسولهم ﷺ ومن بعده من

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ .

الأئمة جاهدوا الناس لإنقاذهم من شؤم الظلام إلى وضح النور وما زال إجماعهم هكذا فى مجال الرأى والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان ذلك سلطانًا من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفًا أو منكرًا عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معًا أو يختلفون فلا يعدوهم الحق ، وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] **فالوسط** : من يُرتضى قوله ، **والشاهد** : من يكون قوله حجة فى مجلس القضاء للفصل فى الخصومات ، وهو إيذان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فإنما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيمن على جميع الكُتب ، ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذى هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولا تلك العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله فى الدنيا ، والتى تتعدى الدنيا إلى مجلس القضاء فى الآخرة حيث يشهد رسول القرآن ﷺ على شهداء الأمم جميعًا .

وأخيرًا فإن إعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التى حار العلماء والمفكرون فى الكشف عنها ، وما زالوا يكتشفون منها كل يوم جديدًا ، ولا يزالون كذلك ما دام القرآن متلوًّا أو محفوظًا فى الصدور .

وليس القول بالإعجاز فى القرآن موجهًا نحو العجز عن فهمه بالقدر الذى تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيدًا عن نطاق الفكر الإسلامى كهذا المعنى الذى لم يقل به أحد ، فيقيموا حوله سوقًا لئيمًا من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

إعجازه من هذه الوجهة التى لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلاً عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء فى نهاية تلك السوق نفى الإعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم فى الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الألسنة اسمه على أى صفة وأى صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن فى أنه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذى يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهى ، سهل الأسلوب ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فإذا حاول عجز عجزًا كاملاً ، واعتراه النقص والتخبط مهما أجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الأسلوبية الناصعة الوضوح فى القرآن .

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحًا فى أن نسق القرآن مغاير تمامًا لنسق الكلام البشرى ، فما هو إلا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحرًا يؤثر .

قال الوليد لأبى جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

فلما قال له أبو جهل : إن هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلاً فلم يجد إلا أن ينسبه إلى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يؤثر) وبطلان نسبة القرآن إلى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد إياه إلى تلك القوة غير المنظورة يبطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة العربية - على الأقل فى ذلك العصر وفى وسط الكفار الذين يتلمسون وجهًا للمعارضة - عن الإتيان بمثله ، فهو وإن لم

يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلاً كاملاً ، بل أبقى من يستطيع السحر قادرًا على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأى عموم القدرة الإنسانية على مثله ،وشهادة العدو بذلك شهادة بالإعجاز إذا راعينا جانب الكفر واللدد فى الخصومة فى وزن هذا القول بميزان علمى دقيق .

ومن أحسن ما قيل فى تعليل إعجاز القرآن ما قاله ابن عطية فى مقدمة تفسيره (١/ ٢٧٨) : « **إن الله** قد أحاط بكل شىء علمًا ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا ، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . . وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة » .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، فكان من المحال أن يطيقوا ثلاثًا وعشرين سنة من التحدى ولا يعارضونه لو استطاعوا إلى ذلك السبيل .

ونقل السيوطى عن حازم فى منهاج البلغاء ما يتم به كلام ابن عطية إذ قال : وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارًا لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى العالى منه إلا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم

تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه ، بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه .

وأى عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام فى هذا الموضوع فى عصرنا ضربًا من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لئيمة يمارسها الأعداء من جبابرة اللؤم والخداع .

وقد فطن المرحوم الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى الكتاب الأول من كتابه (الإسلام فى عصر العلم) إلى دلالة نص من القرآن على عظمة القرآن وإعجازه الذى لن يزال ماضيًا فى الأمم من وجهة نظر العلم . ذلك النص هو قول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [(١)] وقد لفت رحمه الله النظر إلى كلمات (الفطرة) و (الناس) و (لا تبديل لخلق الله) ، فالفطرة هى السنن الإلهية الثابتة التى تقوم عليها الخلقة فى أصلها ، والناس لفظ شامل لمن عاش ومن سيعيش على ظهر الأرض من كل الشعوب والأمم ، وعدم التبديل يدحض زيف العلماء التجريبيين الذين يحلو لهم مهاجمة الإسلام وغيره من الأديان بالتعارض مع العلم ، وإنما التعارض وقع فى تجاربهم لا فى السنن الثابتة التى لما يصلوا إليها بعد ، فظنوا القصور فى أصل القوانين ، بينما القصور ما زال فى عقولهم وتجاربهم .

ويقول رحمه الله : « ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وصف الإسلام - دين القرآن - بأنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره فضلاً عن أن يسبق إليه فى القديم

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

والحديث ، والإنسانية كلها إلى الآن لا تعقل حتى إمكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يومًا إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع وجوهها ، والمسلمون فى شغل بما ينبذ إليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى بين أيديهم ، والنور الذى فوق أبصارهم ، والنعمة الكبرى التى مَنَّ الله عليهم بها فى الإسلام .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعًا بعد أداء وظيفتها فى إقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة ما بقيت الحياة ، فبه حياة القلوب بالإيمان ، وبه حياة الإيمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الأمثل فى تربية إنسان الحضارة الأمثل ، وبهذا الإنسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والإلحاد ، وما كانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها إما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم مردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وما كذلك معجزة القرآن التى بقيت لتحقق مزيدًا من الاتساع فى قاعدة الإيمان على مدى الزمان .

وحدة الموضوع فى القرآن :

لا أريد أن أطيل القول فى موضوع تلاحم آيات القرآن من الوجهة التى طرقها الإمام السيوطى ، وطرقها فى عصره الإمام برهان الدين البقاعى فى كتابه (نظم الدرر فى تناسب الآى والسور) وهو موسوعة جيدة جدًّا فى ستة مجلدات مخطوطة ، كبار ، وطرقها حديثًا المرحوم الأستاذ سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) ، وإنما أريد أن أحدد القول فى وحدة موضوع القرآن من حيث هو قوانين فطرية تتدرج إلى قانون واحد فطرى من وجهة الاجتماع البشرى ، لا يمكن بأى حال أن يتبدل ولا يتغير ، بل إنه يحكم التصرفات البشرية فى كل مكان ،

ويخضعها لسنته وتجاربه المنظورة وغير المنظورة فى ثنايا القرآن والتى تتنافر مع أهواء الناس ، وتتفق تمامًا مع الوعى العقلى الموصول بوعى البصيرة والروح ، أى الوعى العقلى المنفصل عن الهوى .

أقول : إن القانون الرئيسى الذى تدور حوله مواضيع القرآن الفرعية هو : أن الإنسان عبد فقير مأمور محبوس فى مملكة عدوه ، والله معبود غنى مانح للحرية من سجن الدنيا إلى حقيقة الحرية فى جواره الأعلى ، ولا تجد تشريعًا فى القرآن وفى أى باب من أبواب الفقه الإسلامى إلا وهو متصل بهذا القانون الرئيسى ، بحيث تتضافر التشريعات كلها لتحقيق هذا الأصل وتحويله إلى عقيدة شاملة هى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

ولقد جاء القرآن الكريم بهذا الأصل الفطرى مؤيدًا بنصوصه فروعه الأربعة : **فنحن نراه يؤكد عبودية الإنسان وغيره من الكائنات فى نصوص أشملها قوله تعالى** : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (١) ويؤكد فقر العباد بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ (٢) ، وأكد أن الإنسان خاضع للأمر وليس بآمر ولا حاكم بقوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (٣) ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٤) إلى آخر ما ورد فى القرآن من الأوامر الموجهة إلى الإنسان على وجه الإلزام ، وأكد حبس الإنسان فى مملكة عدوه بقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٥) فبين أن الدنيا للذين لا نصيب لهم فى الآخرة ، وهم أعداؤنا ، وأيد هذا المعنى الذى يكون شطرًا كبيرًا فى العقيدة **بقوله** :

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .
(٢) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٨ .
(٤) سورة الإنسان ، الآية : ٣٠ .
(٥) سورة الشورى ، الآية : ٢٠ .

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وآيات الله فى النفس إذا تأملها الإنسان مجردًا عن الكتب والرسالات السماوية تبينت له تلك القوانين الفطرية ، وتأكد له أن القرآن لم ينزل إلا بهذه الفطرة التى هى الخلقة الإلهية بقوانينها العلمية الثابتة التى يواجهها إنسان العصر فاغرًا فاه من الدهشة متصورًا أنه على ضد فى هذه الحياة ، لكثرة ما اعتراه من النسيان ، وصلابة ما غلف قلبه من رين الغفلة ، حتى ظن الباطل حقًا والحق باطلاً إلا من عصم الله ، وقليل ما هم .

فالإجماع قد انعقد فى جميع الأفهام على أن العبد : اسم خاص للمملوك من جنس العقلاء ، والمملوك : اسم لعاقل قهره غيره فاستولى عليه استيلاء السيد على العبد ، سواء أكان القاهر له إنسانًا مثله ، أو شهوة من شهواته ، أم طاغوتًا من الطواغيت ، أم شيطانًا من الشياطين ، أم هو قوة خفية لا يستطيع أن يميزها ، ولا يتبين لها وجهًا ولا جهة . . قاهرة عليا فوق كل القوى .

وتأمل الإنسان فى نفسه دون تقيد بكتاب ولا رسول يؤكد له فى أصل الفطرة أنه عاقل مقهور بالتكوين والإنشاء من العدم ، وإذا كان مقهورًا بأصل الفطرة على هذه الصورة فقد انعدمت فى فطرته المشيئة ، لأن المشيئة عبارة عن نهاية الملكية ، والإنسان قد فطر على ضدها من المملوكية التى أوضحناها ، والدليل على فقدان الإنسان للمشيئة من واقع سلوكه : أنه يشاء الكثير من الخير ، ولا يصيب إلا المقدور له ، والمقسوم منذ الأزل السحيق .

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٣٣ - ٣٥ .

وإذا تحققت العبودية فى فطرة الإنسان ، وتحقق عدم أهليته للملكية كان فقيرًا بفطرته ، والفقر يقتضى الحجر وعدم التصرف إلا بإذن وسلطان من المالك الحق .

وإذا كان الإنسان فى أصل الفطرة على ما وصفنا من العبودية والفقر يعيش على تلك البسيطة الهائلة من الأرض ، ولا يستطيع النفوذ من أقطارها ، كان مقامه عليها على تلك الصورة بحكم الحبس للمحنة والابتلاء ، ولا يتصورها مملكة إلا من عجز عن إدراك الفطرة ، واتخذ إلهه هواه ، وادعى الحرية ، وعلا فى الأرض علو الملوك على مدرجة الضلال .

والبلاء الذى يمتحن به الإنسان هو اختلاف بنى جنسه حول تلك الحقائق الفطرية اختلافًا هائلاً ، ومن وجهات مختلفة ، فاختلف الناس حول الإذعان لتلك الحقائق ، أو ادعاء ضدها ، من الحرية ، والغنى ، والحاكمية ، والسيادة ، ثم اختلفوا حول الحق حينما اتفق بعضهم على أن عبودية الإنسان جبلة فطرية فى أصل خلقته ، ثم اختلقوا طرائق وشواكل حول الغيبيات كلها ، لا سيما البعث الذى شكل الخلاف حوله مذهبًا دهريًا على حكمة الفطرة من أولها إلى آخرها ، فكان بعث الرسل وإنزال الكتب ضرورة لا محيص عنها ، لإقامة الحجة ، وهداية الناس ، وحمايتهم من عواقب الخلاف حول الفطرة ، وإن كان الخلاف فى أصله هو الآخر فطرة وسنة من سنن الله فى الخلق ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (١) فإن الكتب والرسالات كانت لقمع الجنوح النفسى تحت تأثير الخلاف إلى فوضى مدمرة لا تبقى ولا تذر .

كان من أمهات المسائل التى عنى القرآن بفصل القول فيها : مسألة العبودية لله ، ومسألة البعث للجزاء والكشف عن الحقيقة العظمى التى

(١) سورة هود ، الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

اختلف حولها الإنسان فى عالم الجسد المادى بما له من مقتضيات الخلاف واللدد فى الخصومة ، وتلك الحقيقة العظمى هى الوجود الإلهى ، وإذعان كل الكائنات لسلطانه طوعًا أو كرهًا ، ولذلك ارتبط إثبات البعث بإثبات الوجود الإلهى ، وإثبات الدلائل على شمول علمه وقدرته ، وارتبط كل ذلك بأصل الفطرة على الوجه الذى بيناه فى هذه العجالة ، وكان من تلك المسائل شطر كبير من القرآن ، تبعًا لجهل أكثر الناس بها ، ونسيان فطرتهم وهم يحاولون علمها وتشددهم فى إنكارها أو الغفلة عنها ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) .

فلما كان الخلاف مركوزًا فى الفطرة ، لم يكن هناك سبيل إلى إدراك حقيقة البعث المؤكد للحقيقة الإلهية العظمى إلا حين يرتفع الخلاف بنقل الحياة إلى صورة أخرى ذات فطرة لا خلاف فيها فيتحقق وجود حالة من الحياة مغايرة لتلك الحياة التى يحياها الإنسان فى الدنيا ينكشف فيها الغطاء ، ويحد البصر ، فيرى ما لم يكن يراه من قبل ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾(٢) ، فلا خلاف ولا تطاحن حول الحقائق .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستقصى منهج القرآن فى إثبات هذا الشطر من فطرة الإنسان ، ولكننا نشير إلى قسم آخر من أقسام تلك الفطرة ، هو الحرية الإنسانية التى ترتبط هى الأخرى بموضوع البعث ارتباطًا وثيقًا بحيث تشكل معه ومع العبودية والفقر إلى الله موضوعًا واحدًا ، يتصل بموضوعات أخرى فرعية هى مقومات أو شواهد على صدق تلك الفطرة الإلهية الحكيمة ، وتستغرق شطرًا كبيرًا من القرآن .

---

(١) سورة النحل ، الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(٢) سورة الحِجْر ، الآية : ٤٧ .

لا حرية مطلقة للإنسان فى هذه الدنيا ، هكذا تنطق شواهد الفطرة التى جبل الله عليها الإنسان ، وقامت عليها الشواهد فى شريعته مما يمارسه نفس ذلك الإنسان الذى يدعى لنفسه الحرية والسيادة والغنى وهمًا وسرابًا لا حقيقة له فى الذات ولا فى الصفات ، كما قرر القرآن .

والنموذج الواضح الذى يمكن الوصول من خلاله إلى هذه النتيجة الفطرية هو : الغنى الذى ساد الناس بزعمه من جبابرة المال وملوك الأرض ، حتى ملك العبيد ، وخضعت له الرقاب ، وجمع الجنود واستولى على الأرض ، فما له من منازع فى أمر ، ولا معقب فى رأى ، مطاع على عزة وامتناع فى أنظار العامة من غير المستبصرين الباحثين عن الحقيقة فى أصل الفطرة .

ويقول الإمام أبو زيد الدبوسى ردًا على تلك الدعوى العريضة : إن هذا المدعى للحرية والملك ما استقر سلطانه ، وعلا مكانه بفطرته ، وإنما بجنوده ، وبأس عبيده ، لا يستغنى عنهم ساعة لاستدامة ما هو فيه ، فهو يطلبهم بهواهم ، وينيلهم مناهم ، صدقًا برغبته فيهم ، والناس يطيعونه رياء لخوفهم منه ، أو طمعًا فيما فى يده ، وهو يطيع هوى من دونه ، وهم يطيعون من فوقهم ، وطاعته لهوى الناس ضرورية ، وطاعة الناس له ليست ضرورية ، لبقاء منزلتهم فى أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعة الناس له بأجسامهم ، وطاعته لأهوائهم بقلبه فاستترت وما ظهرت إلا لأهل البصائر .

ويمضى الإمام الدبوسى فى بيان العجيب إلى أن يقول مخاطبًا هذا النوع ممن يدعون الحرية والغنى : فعميت وجلست على سرير العبودية للعبيد ، وكان ائتمارك للجنود ، وأحاطت بقلبك المكاره والآفات ، وظننت أنك ملك ، هيهات . ما أنت إلا مأمور حشمك ، والرعية مأمور ملكهم ، غير أن النفس لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك إلى الفعل قبل الأمر .

ويمضى الإمام الدبوسى فى بيانه العجيب إلى أن يقول مخاطبًا هذا النوع من الناس فيقول : إن تصرفك فى أموالك كلها متردد بين جائز مأمور به ، وفاسد منهى عنه ، وما هكذا علامة الملك والقهر ، لكنه علامة الإذن على الفقر ، غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك ، وقرن بقاءك بغذائك ، وخلق مما فى الأرض منفعة لك إلى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبًا مفرزًا ، كيلا يتغالبوا فيتفانوا وجعل عليهم من أصلحهم قيمًا وهو السلطان ، فهم يتمتعون بالأنصباء من يد القيم من أحوال طفولتهم وصغرهم ، فإذا عقلوا سلمت إليهم الأنصباء لحق الإذن فى التجارة دون إثبات الملك ، فإذا بلغوا وكملت الحالة ، ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطبوا بأدائها مدة الحياة ليعتقوا إذا أدوا ، وسلمت إليهم للحال الأنصباء لحق الإذن تسليم يد ، ليتصور الأداء بحكم تباين الأيدى ، وإن لم يكن فى الحقيقة ملكًا للمؤدى ، حتى لم يملكوا من أموالهم إلا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

وهنا يتصل هذا الموضوع بموضوع الرق فى القرآن والشريعة بعد ما انحسم القول فى مشكلة الملك والحرية ، والنصوص القرآنية المتعارضة فى الظاهر ، من حيث يثبت الملك فى بعض النصوص للإنسان ، ويرجع الملك كله لله وينتفى عن الإنسان فى النصوص الأخرى ، ثم يتصل الموضوع الواحد للقرآن بالتشريعات المالية وفروعها تحقيقًا للملك الإلهى والقدر المتاح للعباد بالتصرف ، ثم بموضوع البقاء الإنسانى بالتكاثر بعد ما بقى المال ، وما يتبع ذلك من أبواب التشريع ، ثم بموضوع المجتمعات الإنسانية وحضاراتها التى لا تزدهر إلا تحت الأمر الإلهى ، ولا تندثر إلا تحت التمرد على تلك الأوامر ، وبموضوع القصص القرآنى وتوجيه النظر نحوه فى حركة التاريخ تحقيقًا لهذا الأصل الفطرى الذى تدرج حتى وصل إلى قاعدة أوسع يحتمل فيها النسيان ، ولهذا شرعت العبادات والذكر لدوام التذكر .

ولا يخلو موضوع من موضوعات التشريع من دليل واضح على تلك الفطرة الثابتة ، وخير ما يمكن أن ندرك من خلاله موضوع الحرية الإنسانية هو موضوع الرق وما يتصل به من تشريعات . إذ أن الرق والعبودية لما كانا من فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، وأن الملكية للإنسان فى الدنيا ما هى إلا ابتلاء ينال الإنسان من خلالها ومن خلال الأوامر المتصلة بها حقيقة الحرية فقد شرع الله من التشريعات السلوكية فى هذا الصدد ما تتضح به تلك الفطرة لكل ذى عينين .

يملك الرجل أخاه ملك يمين بسبب مشروع هو أن يكون أو أحد أصوله ممن تمردوا على دعوة العبودية لله بالسلاح فأسروا فى الحرب الدينية ، ولكن رحمة الله اقتضت أن يشرع له وجه من وجوه الحرية هو (المكاتبة) ، والكتابة باب واسع فى الفقه الإسلامى ، يشترى العبد حريته من سيده بمال معلوم ، ولما كان العبد لا يملك ، فقد ندب السيد إلى أن يأذن له فى العمل بجزء من المال إحسانًا ، ويتصرف العبد بقدر ما انفك عنه الحجر ، كأنه مالك وليس إلا عبدًا ، فإذا أدى عتق ، وإذا عجز بقى عبدًا ومن هذه القضية التى يمارسها الإنسان بأمر الله يمكن الفصل فى قضية الحرية الكبرى على المستوى الغيبى ، بعد دراستها على المستوى المشهود .

فالحرية الممنوحة من الله تعالى لعباده الذين أدوا ما وجب عليهم فى دار الابتلاء تشمل الذات فى الدنيا والصفات فى الآخرة جميعًا ، ويشهد لذلك قوله تعالى عن هؤلاء الأحرار فى دار النعيم : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[1] فما يريده هؤلاء الأحرار يتحقق بمجرد المشيئة ، وتحقق المراد بمجرد المشيئة وإن كان حقًا لله فقد أكرم الله به عبده المطيع بتكوين ما يشاؤه .

فإذا كانت الحرية فى الدنيا هى خلاص حق الحر فى نفسه وماله ، فما

---

(١) سورة (ق) الآية : ٣٥ .

لأحد على الفائز بالجنة حق فى شىء من أحواله ، فيكون عبدًا فى ذاته من حيث التكوين ، عتيقًا فى أفعاله من حيث الإنعام والتكريم . وهكذا يكون مثل ما فى التشريع ، وصلاً بين حياتين يدرك المستبصر من خلالهما كل أسرار الفطرة التى لم يخرج عنها القرآن فى أى موضوع فرعى من مواضيعها ، ومن هذه النافذة يمكن أن تتصل موضوعات القرآن فى وحدة متماسكة لا خلل فيها .

وجانب آخر متلاحم مع هذا الأصل الفطرى الذى دار حديثنا حوله ، ودارت حوله الكثير من آيات القرآن الكريم هو : العدل باعتباره الفطرة التى بنى الله تعالى عليه هذا الكون المنظور وغير المنظور ، وردنا من خلال تلك الفطرة إلى موضوع المعبود الحق الذى تقوم على أساسه الحضارة القرآنية ، والدعوة العالمية إلى الإسلام ونجاحها اليقين من حيث تعثرت خطى الدعاة فى عصرنا الحاضر حينما أخلوا بتلك الفطرة .

وأصل هذا الجانب الرئيسى : أن الله - عزت قدرته - علق بقاء الأنفس بالمال ، وعلق بقاء الجنس بازدواج الذكر والأنثى ، فأنت ترى أن أسباب البقاء والتكاثر هى شهوات الطبيعة التى فطر الله الناس عليها ، لتكون تلك الشهوات سائقة إلى أسباب البقاء ، ثم أعلن سبحانه أنه ما خلقهم للاستغراق فى تلك الشهوات ، بل ليوحدوه ويعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، ولهذا نرى القرآن يدعو إلى العمران ويشرع النكاح ، وينعى على من يحرم الطيبات من الرزق ، وفى الوقت نفسه يمقت الترف والإغراق ، ويدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى ، ويعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، فى مقابلة تعليق الحاضرة على الشهوات والهوى ، وهنا كان الابتلاء الذى لا ينجو الإنسان منه إلا بالعدل وإقامة الموازين الدقيقة فى شئون المال والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء .

عدل الإنسان مع نفسه ، فلا ينساق إلى الترف فى الجسد والعقل ، وعدل الإنسان فى علاقته بربه ، فلا تطغى عليها الدنيا بشهواتها ،

ولا تطغى العبادة على العمران ، وعدل الإنسان فى علاقته مع غيره من بنى جنسه ، إبقاء على الإخوة الضرورية لنجاح الأمة فى شريعة الجهاد فى سبيل الله ، وقد أفاض القرآن فى هذه المواضيع وربطها بما أشرنا إليه من مواضيع فى شطر كبير جدًا من آياته .

وغاية العدل : أن يصل الإنسان إلى أن كل سلطان عليه غير سلطان الله فهو شرك وضلال ، وكل عبودية لسواه ذل ، وعلى الإنسان أن يوفق بين ارتباط مصالحه الدنيوية بغيره من الناس وبين العبودية لله ، فلا يمنح الإنسان أكثر من حقه فى أنه عبد مسخر للعمل وتبادل المنافع مغ غيره ، ولا يتحدث عن الخالق الأعلى حديثه عن العبيد ، ولا يخلط بين الفانى ومانح الحياة .

وعلى هذا النهج تخلص عقيدة المؤمن من الشرك الخفى والجلى ، وعلى العكس إذا اختلت موازين العدل بين الإنسان ونفسه ، فمال إلى الشهوات ، فإنه حينئذ يصبح إنسانًا مختلاً فى توازنه بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ويضعف أو ينعدم شعوره بسلطان الله وقهره ما دام مقهورًا للشهوة ، مدفوعًا بسلطان المال ، ومن هذا تكون الفوضى ، ويتحطم بناء المجتمع باختلال نظام الأسرة .

فالإنسان لا يصبح سويًا صالحًا لممارسة شعائر الإيمان الحق كما يريده الله تعالى إلا إذا عدل بين مطالب جسده ، ومطالب عقله ، ومطالب روحه ، **فمطالب الجسد** : إبقاؤه حيًا متكاثرًا دون سرف ولا تقتير ، ومطالب العقل : النظر فى العلوم والمعارف التى تؤدى إلى رقى الإنسان وتساميه عن وحل الانحراف ، ومطالب الروح : وصلها عن طريق العبودية والعبادة بمصدر الوجود الحق ، وإسناد التوفيق إليه ، والبراءة من الحول والقوة ، والفرار إليه فى كل المهمات .

وظلم الإنسان لنفسه فى جانب من الجوانب الثلاثة ينتهى به إلى مرتبة

الأنعام حينما يعبد هواه ، وإلى الشرك حينما يصبح الظلم عظيمًا بالغفلة عن الله ، وعن مراقبته ، ومراقبة إنعامه ، ونسبة شيء من ذلك إلى العبيد باللسان أو بالوجدان أو بالعمل .

ولقد بث الله تعالى تعاليمه للمؤمنين وحدة الموضوع القرآني عن طريق العدل في المطالب البشرية الفطرية في مواضع كثيرة من أظهرها أوائل سورة الروم .

فقد افتتحها الله تعالى بتذكير المؤمنين بأن النصر من عند الله ولكنهم لا يعلمون ؛ لأنهم يغفلون عن مطالب الروح فلا يعلمون إلا ظاهرًا من الدنيا ، ثم أرشد إلى منهاج الوفاء بمطالب العقل والروح ، ووجه الأنظار إلى التفكر في أنفسهم وفي خلق السموات والأرض بالحق لعاقبة الجزاء ، وإلى دراسة تواريخ الأقدمين من جبابرة الكفر ، وكيف انتهى بهم الحال إلى ذل مقيم ، ثم وجه الأنظار إلى استمرار خط الحياة بعد الموت ، وبسط القول في الثواب والعقاب ، وأمدهم بمادة التفكر الموصلة إلى حقيقة الإيمان والتوحيد ، وكيف أن الملك الحق يفعل ما يريد .

ثم انتهى القول الكريم إلى مخاطبة الرسول ﷺ وتوجيهه نحو عناصر الفطرة في هذا البيان الحكيم ، فقال تعالى قولاً فصلاً فيه كل العلم لأهل البصائر والذكرى .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] .

وهذا هو الموضوع الواحد الذى شرحه القرآن ، وعرضه على مختلف

(١) سورة الروم ، الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

المناهج حتى يستحق وصف الله تعالى له بأنه كتاب البشرية كلها ، جاء به رسول الله ﷺ إلى الناس كافة فى كل العصور والأجيال .

فسبحان الله الذى أقام بالعدل والقسط والميزان هذا الكون الهائل ، وأنطق بالعدل حركات الكواكب ، ودرجات الحرارة والبرودة ، وموج المحيط ، وهدير السحاب ، وسوق الماء ، واضطراب الأرض بالنبات ، وكل سر لله فى خلقه منظور ومحسوس ومغيب عن مدارك الإنسان ، وربط بين العدل والفطرة ، وربط بين الفطرة والقرآن ، وأنزله كتابًا واحد الموضوع . . كتاب الهدى والتوحيد والفطرة .

عبد القادر أحمد عطا

* * *

ترجمة الإمام السيوطي *

(٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)

نادرة زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، إمام الشيوخ ، وعمدة أهل التحقيق والرسوخ ، قطب الشارحين ، وتاج المدققين ، حامل لواء الفصاحة وحُلة البلاغة .

جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى ، الحافظ المحدث ، اللغوى الأصولى الفقيه المفسر ، ولد سنة ٨٤٩ هـ ، شَبّ يتيمًا فحفظ القرآن ، وطلب العلم ، فألح فى طلبه ، وأغرم منذ نعومة أظافره بالجلوس للشيوخ والعلماء ، ولما بلغ سن الأربعين اعتزل الناس وخلا بنفسه فى روضة المقياس بالقاهرة على نيل مصر ، وانهمك فى التأليف والتصنيف .. له كتب كثيرة منها :

١ - جمع الجوامع .
٢ - الجامع الصغير .
٣ - تاريخ الخلفاء .
٤ - تنوير الحوالك .
٥ - الحاوى .
٦ - حسن المحاضرة .
٧ - تدريب الراوى .
٨ - الإتقان فى علوم القرآن .
٩ - طبقات الحفاظ .
١٠ - طبقات المفسرين .

توفى بروضة المقياس ، ودفن بالقاهرة فى حوش قوصون خارج باب القرافة المعروف الآن ببوابة السيدة عائشة سنة ٩١١ هـ .

---

* **انظر** : الضوء اللامع (٤/ ٦٥) ، والأعلام (٣/ ٣٠١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[قال الشيخ الإمام العالم ، العامل ، الحجة ، البحر الفهَّامة ، رحلة الطالبين ، عمدة المفتين ، لسان المتكلمين ، محيى السنة فى العالمين ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن الشيخ العلامة كمال الدين ، السيوطى ، الشافعى ، فسح الله تعالى فى مدته ، ونفعنا والمسلمين ببركته ، وجعلنا وإيَّاه من حزب محمد وعترته] (١) :

الحمد لله الذى أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب ، وبهر بحسن أساليبه وبلاغة تركيبه القلوب ، نزله آيات بينات ، وفصله سورًا وآيات ، ورتبه بحكمته البالغة أحسن ترتيب ، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب ، صلى الله على من أنزِل إليه لينذر به وذكرى ، ونزّله على قلبه الشريف ، فنفى عنه الحرج وشرح له صدرًا وعلى آله وصحبه مُهَاجِرة ونصرًا . . وبعد :

فإن الله سبحانه منّ علىّ بالنظر فى مواقع نجومه ، وفتح لى أبواب التطرُّق (٢) إلى استخراج ما أودع فيه من علومه ، فلا أزال أسرِّح النظر فى بساتينه من نوع إلى نوع ، وَأسْتَسنح (٣) الخاطر فى ميادينه فيبلغ

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من (ظ) .

(٢) **فى المطبوعة** : « النظر فيه » ، والمثبت من (ظ) ، وتطَرَّقَ إليه : ابتغى إليه طريقًا وتوسَّلَ .

(٣) **أستسنح خاطرى** : أستفحصه ، **أى** : أتأمل به متفحصًا .

الغرض ويرجع وهو يقول : لا رَوْع ، فتقت[(١)] عن أنواع علومه ولقبتها ، وأودعت ما أوعيت منها فى دواوين وأعيتها ، ونقبت[(٢)] عن معادن معانيه وأبرزتها ، وأوقدت عليها نار القريحة وميزتها ، وألفت فى ذلك جامعًا ومفردًا ، ومطنبًا ومقصدًا[(٣)] ، ومن خلق لشىء فإلى تيسّره ، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره .

وإن مما ألفت فى تعلقات القرآن كتاب « أسرار التنزيل »[(٤)] الباحث عن أساليبه ، المبرِز أعاجيبَه ، المُبِين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه ، الكاشف عن وجه إعجازه ، الداخل إلى حقيقته من مجازه ، المُطْلع على أفانينه ، المبدع فى تقرير حججه وبراهينه ، فإنه اشتمل على بضعة عشر نوعًا :

الأول : بيان مناسبات ترتيب سوره ، وحكمة وضع كل سورة منها .

الثانى : بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِل فى السورة التى قبلها .

الثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التى قبلها .

الرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سيقت له ، وذلك براعة الاستهلال .

الخامس : مناسبة أوائل السور لأواخرها .

السادس : مناسبات ترتيب آياته ، واعتلاق بعضها ببعض ، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .

السابع : بيان أساليبه فى البلاغة ، وتنويع خطاباته وسياقاته .

الثامن : بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ،

---

(١) **فتقت عن كذا** : شققت عنه وكشفت عن سره . م : وفى (ظ) : « فنقبت » .

(٢) فى (ظ) : « وبقرت » وكلاهما سائغ . والبقَّار : الحفّار .

(٣) مطنبًا من الإطناب ، وهو : التطويل ، ومقصدًا من القصد ، وهو الاختصار .

(٤) أو قطف الأزهار فى كشف الأسرار ، وذكره المؤلف فى حسن المحاضرة (١/ ٣٣٩) ، وتوجد منه نسخة خطية فى برلين (٦/ ٧٢٣) دليل مخطوطات السيوطى (٣٠) .

كالاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، والالتفات ، والتورية ، والاستخدام واللف والنشر ، والطباق ، والمقابلة ، وغير ذلك ، والمجاز بأنواعه ، وأنواع الإيجاز والإطناب .

التاسع : بيان فواصل الآى ، ومناسبتها للآى التى ختمت بها .

العاشر : مناسبة أسماء السور لها .

[**الحادى عشر** : الألفاظ التى ظاهرها الترادف وبينهما فرق دقيق] [١] .

الثانى عشر : بيان وجه اختيار مرادفاته وَلِمَ عُبِّرَ به [٢] دون سائر المرادفات [٣] .

الثالث عشر : بيان القراءات المختلفة ، مشهورها ، وشاذها ، وما تضمنته من المعانى والعلوم ، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه .

الرابع عشر : بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات فى القصص وغيرها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وإبدال لفظة مكان أخرى ، ونحو ذلك .

وقد أردت أن أفرد جزءًا لطيفًا فى نوع خاص من هذه الأنواع ، هو : مناسبات ترتيب السور ، ليكون عجالة لمريده ، وبغية لمستفيده ، وأكثره من نتاج فكرى ، وولاد نظرى ، لقلّة من تكلم فى ذلك ، أو خاض فى هذه المسالك ، وما كان فيه لغيرى صرحت بعزوه إليه ، ولا أذكر منه إلا ما استُحْسِن ، ولا انتقاد عليه ، وقد كنت أولاً سميته

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من (ظ) .
(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من (ظ) .
(٣) فى (ظ) : « مرادفاته » .

« نتائج الفكر فى تناسب السور » لكونه من مستنتجات [1] فكرى كما أشرت إليه ، ثم عدلت وسميته « **تناسق الدرر فى تناسب السور** » ؛ لأنه أنسب بالمسمّى ، وأزيد بالجناس .

وبالله تعالى التوفيق ، وإيَّاه أسأل حلاوة التحقيق ، بمنِّه ويُمْنِهِ .

* * *

(١) فى (ظ) : « مستفتحات » .

مقدمة في ترتيب السور

اختلف العلماء فى ترتيب السور ، هل هو بتوقيف من النبى صلىَّ الله عليه وسلم ، أو باجتهاد من الصحابة ، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفى ، والقطع بذلك .

فذهب جماعة إلى الثانى ، منهم : مالك ، والقاضى أبو بكر [(١)] فى أحد قوليه ، وجزم به ابن فارس [(٢)] .

ومما استدل به لذلك : اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف علىّ ، كان أوله : « اقرأ » ثم البواقى على ترتيب نزول المكىّ ، ثم المدنى ، ثم كان أول مصحف ابن مسعود « البقرة » ثم « النساء » ثم « آل عمران » على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أُبىّ بن كعب وغيره ، على ما بينته فى الإتقان [(٣)] .

وفى المصاحف لابن أشتة بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطُّوَل [(٤)] .

---

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم المشهور ، صاحب كتاب إعجاز القرآن والتقريب وغيره ، توفى سنة ٤٠٣ هـ وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٤٨١) وشذرات الذهب (٢/ ٥٧). **انظر** : قول الباقلانى فى الانتصار للقرآن (١/ ١٦٨) وما بعدها .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازى اللُّغوى ، وهو من أكابر أئمة اللغة فى وقته ، محتجًا به فى جميع الجهات غير منازع ، وكان يناظر فى الفقه ، توفى سنة ٣٩٥ هـ ، ترجمته فى إنباه الرواة (١/ ٩٤) ويتيمة الدهر (٣/ ٤٠٠) وتلخيص ابن مكتوم (١٥) وكلام ابن فارس هذا فى « المسائل الخمس » ذكره الزركشى فى البرهان (١/ ٢٣٧) .

(٣) انظر هذا الاختلاف فى المصاحف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١/ ٥١) ، والإتقان : (١/ ٢١٦) وفيه أن ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف ، أما وضع كل مجموعة تلو الأخرى فمن الصحابة .

(٤) **انظر** : الإتقان (١/ ٢١٦) من طريق إسماعيل بن عياش إلى أبى محمد القرشى ، =

وذهب جماعة إلى الأول ، منهم : القاضى أبو بكر فى أحد قوليه ، وخلائق ، **قال أبو بكر بن الأنبارى** (١) : أنزل الله القرآن كُلَّه إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل ، والآية جوابًا لمستخبر ، ويوقف جبريلُ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله (٢) عن النبى صلَّى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن (٣) .

وقال الكرمانى فى البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى فى اللوح المحفوظ (٤) على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبى صلَّى الله عليه وسلم على جبريل ما اجتمع لديه منه ، وعرضه صلَّى الله عليه وسلم فى السنة التى توفى فيها مرتين (٥) ، وكذلك قال الطيبى (٦) .

= وإسماعيل فيه كلام (الضعفاء ، من اسمه إسماعيل) ، وابن أشتة هو محمد بن عبد الله بن أشتة أحد العلماء بالعربية والقراءات ألف فى المصاحف وشواذ القراءات ، توفى سنة ٣٠٦ هـ (طبقات القراء : ٢/ ١٨٤) ، وانظر المصاحف ، لابن أبى داود (٣٤ و ٥٣) وما بعدها .

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين بن بيان بن دعامة الإمام أبو بكر بن الأنبارى النحوى اللغوى ، كان صدوقًا فاضلاً ديّنًا خيّرًا من أهل السُّنة ، توفى سنة ٣٠٤ هـ طبقات النحويين واللُّغَويين (١٧١) وبغية الوعاة (١/ ٢١٢) والسير (١٥/ ٢٧٤) وما بعدها .

(٢) **فى المطبوعة** : « كان » والمثبت من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر كما عند الزركشى فى البرهان (١/ ٢٦٠) ، والسيوطى نقلاً عنه فى الإتقان (١/ ٨٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : (١/ ٦٠) وأسرار التكرار فى القرآن ص ٢٣ ، والإتقان (١/ ٢١٧) ، والبرهان (١/ ٢٦٠) والنص له ، وانظر المحرر الوجيز (١/ ٥٣) والانتصار للقرآن للباقلانى (١/ ١٦٨ ، ١٦٩) .

(٤) **فى المطبوعة** : « وهو على » والمثبت يؤيده ما فى المصادر . وكذا نسخة (ظ) .

(٥) **الكرمانى** : محمود بن حمزة بن نصر ، وكتابه « البرهان » نشرناه باسم « أسرار التكرار فى القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة . **انظر** : ص ٢٣ .

(٦) **الطِّيبى** : بكسر الطاء ، الحسن بن محمد بن عبد الله ، الإمام المشهور العلامة فى المعقول والعربية والمعانى والبيان . كان آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسُّنن . مقبلاً على نشر العلم متواضعًا ، حسن المعتقد . **انظر** : « بغية الوعاة » (١/ ٥٢٢ - ٥٢٣) .

وقال ابن الحصار(١) : [ترتيب السور](٢) ، ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحى .

وقال البيهقى فى المدخل : كان القرآن على عهد النبى صلَّى الله عليه وسلم مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراءة للحديث الآتى فيها(٣) .

ومال ابن عطية(٤) إلى أن كثيرًا من السور كان قد علم ترتيبها فى حياته صلَّى الله عليه وسلم كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فَوَّضَ الأمر فيه إلى الأمة بعده(٥) .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نصَّ عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل يمكن أن يجرى فيه الخلاف ، لقوله صلَّى الله عليه وسلم : « اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » (رواه مسلم)(٦) وكحديث سعيد بن خالد أنه صلَّى الله عليه وسلم صلَّى

---

(١) **ابن الحصار** وهو : على بن محمد بن محمد بن إبراهيم الخزرجى الإشبيلى ، له مؤلفات منها : أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ . توفى سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦) .

(٢) ما بين الحاصرين زدناه من الإتقان : (١/ ٢١٦) .

(٣) لم أقف على هذا النص بعد تتبع فى المدخل ، واسم الكتاب : « المدخل إلى السنن الكبرى » للبيهقى ، ولعل هذا النص من النصوص المفقودة ، وهى من الجزء الأول ، كما أفاد محقق الكتاب (١/ ١١٦) . **وانظر** : « دلائل النبوة » للبيهقى (٧/ ١٥٢) ، والبرهان (١/ ٢٥٦) ، والإتقان (١/ ٨٣) ، والتحبير فى علم التفسير (١٧٣) .

(٤) هو الإمام عبد الحق بن غالب بن عبد الرءوف المعروف بابن عطية ، وتفسيره هو المعروف بالمحرر الوجيز ، توفى بمدينة لورقة سنة ٥٤٦ هـ . الديباج المذهب (١٧٤ - ١٧٥) ، وبغية الوعاة (٢/ ٧٣ - ٧٤) .

(٥) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (١/ ٥٣ - ٥٤) .

(٦) أخرجه مسلم فى فضائل القرآن مطولاً عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه (٢/ ٩١٣) ، وأبو داود (١/ ٨٨ ، ٨٩) مختصرًا ، والهيثمى فى مجمع الزوائد عن عائشة رضى الله عنها أنه صلَّى الله عليه وسلم قرأ البقرة وآل عمران والنساء (٢/ ٢٧٢) ، وعزاه إلى أبى يعلى .

بالسبع الطوال فى ركعة ، وأنه كان يجمع المفصل فى ركعة » (أخرجه ابن أبى شيبة)[1] وأنه صلىَّ الله عليه وسلم « كان إذا أوى إلى فراشه قرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين » (أخرجه البخارى)[2] وفيه عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العِتَاق الأُوَلِ ، وهنَّ من تِلادى »[3] .

وقال أبو جعفر النحاس[4] : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم لحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثانى ، وفُضِّلت بالمفصَّل » (أخرجه أحمد وغيره)[5] قال : فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبى صلىَّ الله عليه وسلم ، وأنه من هذا الوقت هكذا .

(١) حديث (السبع الطوال) أخرجه أيضًا الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٦٢) بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبزار وأحمد ، وأخرج رواية أخرى (٢/ ٢٧٤) أنه قرأ السبع الطوال فى ليلة .
وحديث (كان يقرأ المفصل فى ركعة) أخرجه مسلم فى فضائل القرآن (٢/ ٢٠٤) عن عبد الله بن مسعود ﷺ مطولاً وفيه (عشرون سورة من المفصل فى ركعة) ، والبخارى فى التفسير (٦/ ٢٤٠) وفيه (ثمانى عشرة سورة من المفصل) .

(٢) أخرجه البخارى فى التفسير عن عائشة رضى الله عنها (٦/ ٢٢٣) ، والترمذى فى التفسير (٩/ ٣٤٧ ، ٣٤٨) بتحفة الأحوذى ، وفيه أنه كان يجمع يديه ، وينفث فيهما ، ويقرأ ، ويمسح بهما ما استطاع من جسده .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (٦/ ١٨٩) والعتاق : اللاتى نزلن قديمًا بمكة . والتلاد : القديم .

(٤) هو الإمام أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المفسر المصرى النحوى المعروف بالنحاس . توفى سنة ٣٣٨هـ ، وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ١٠٠) والسير (١٥/ ٤٠٢) والأنساب للسمعانى (١٣/ ٤٤) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ١٢٤) عن واثلة بن الأسقع ﷺ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٥٨) وعزاه للطبرانى أيضًا عن واثلة وأبى أمامة م : قلت : ورواه الترمذى فى سننه برقم (٢٨٧٨) ، وقال : هذا حديث حسن ، وانظر معانى القرآن للنحاس (١/ ٤٨) .

وقال **الحافظ ابن حجر** : ترتيب معظم السور توقيفى ، لحديث أحمد وأبى داود عن أوس الثقفى قال : كنت فى وفد ثقيف ، فقال [لنا] [(١)] رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : « طرأ علىّ حزبى من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه » . قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزِّبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشر سورة ، وحزب المفصل ، من « ق » حتى نختم [(٢)] .

قال : فهذا يدلُّ على أن ترتيب السور على ما هو عليه فى المصحف الآن كان على عهد النبى صلَّى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم [(٣)] : لترتيب وضع السور فى المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفى صادر من حكيم .

الأول : بحسب الحروف ، كما فى الحواميم ، وذوات ﴿ الٓر ﴾ .

الثانى : لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها [(٤)] كآخر الحمد فى المعنى ، وأول البقرة .

الثالث : الوزن فى اللفظة كآخر ﴿ تبت ﴾ وأول (الإخلاص) .

الرابع : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى ، كالضحى وألم نشـــرح [(٥)] .

---

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من « ظ » .

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ١٤٠) ، وفيه (وحزب المفصل وحده) والإمام أحمد فى المسند (٥/ ٤٣) ، والحديث مضطرب فى الأصل ، وصححناه من أبى داود ، وانظر البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٤٦ - ٢٤٧) .

(٣) هو الزركشى كما فى البرهان (١/ ٢٦٠) .

(٤) فى (ظ) « لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها » وانظر البرهان (١/ ٢٦٠) والجملة بالنص فيه .

(٥) انظر البرهان (١/ ٢٦٠) .

وقال بعضهم : إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدت فى غاية المناسبة لما ختمت به السورة التى قبلها ، ثم [هو] (١) يخفى تارة ، ويظهر أخرى .

وأخرج ابن أَشتة (٢) عن ربيعة : أنه سئل : لِمَ قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا ، وأُلِّفَ القرآن على علم ممن ألّفه [به ومن كان معه فيه واجتماعهم] (٣) على علمهم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه ، ولا يُسْأل عنه (٤) .

فإن قلت : فما عندك فى ذلك ؟

قلت : الذى عندى أولاً : تحديد محل الخلاف ، وأنه خاص بترتيب سور الأقسام الأربعة ، وأما نفس الأقسام الأربعة ، من تقديم الطوال ، ثم المئين ، ثم المثانى ، ثم المفصل ، فهذا ينبغى أن يقطع بأنه توقيفى ، وأن يدَّعى فيه الإجماع ، وإن لم أر من سبقنى إلى ذلك ، وإنما دعانى إلى هذا أمران :

أحدهما : ما تقدم من الأحاديث قريبًا ، وحديث ابن عباس رضى الله عنهما الآتى فى الأنفال .

والثانى : أن المصاحف التى وقع فيها الاختلاف فى الترتيب اتفقت

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) **فى المطبوعة** : « ابن أبى شيبة » تحريف ، والمثبت من (ظ) وهو الصواب ، وقد ذكر السيوطى هذا النص فى الإتقان أيضًا (١/ ٨٤) ، وانظر تفسير القرطبى (١/ ٥٢) وفيه هذا الخبر كذلك .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهو الصواب ، ويؤيده ما جاء عند السيوطى فى الإتقان (١/ ٨٤) وانظر تفسير القرطبى (١/ ٥٢) .

(٤) نقل القرطبى فى تفسيره (١/ ٥٢) هذا الخبر ، وعزاه إلى ابن وهب فى جامعه ، والنص مضطرب فى الأصل ، وقوَّمناه من القرطبى .

على ذلك ، فإن مصحف أُبيّ بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال ، ثم المثانى ، ثم المفصل ، كمصحف عثمان ، وإنما اختلفا فى ترتيب سور كل قسم كما بينت [ذلك][1] فى الإتقان[2] .

[وهذا دليل قوى فى دعوى القطع بأن ذلك توقيفى][3] .

فإذا تحرر ذلك ، ونظرنا إلى محل الخلاف ، فالمختار عندى فى ذلك : ما قاله البيهقى ، وهو : أن ترتيب كل السور توقيفى ، سوى الأنفال وبراءة .

ومما يدل على ذلك ويؤيده : توالى الحواميم ، وذوات ﴿ الٓر ﴾[4] والفصل بين المسبحات ، وتقديم ﴿ طس ﴾ على القصص ، مفصولاً بها بين النظيرتين [طسم الشعراء ، وطسم القصص] فى المطلع والطول ، وكذلك الفصل بين الانفطار والانشقاق بالمطففين ، وهما نظيرتان فى المطلع والمقصد ، وهما أطول منها ، فلولا أنه توقيفى لحكمة لتوالت المسبحات ، وأخرت (طس) عن القصص ، وأخرت ﴿ المطففين ﴾ أو قدمت ، ولم يفصل بين ﴿ الٓر ﴾ و ﴿ الٓر ﴾[5] .

وليس هنا شيء أعارض به سوى اختلاف مصحف أُبَىّ وابن مسعود رضى الله عنهما ، ولو كان توقيفيًا لم يقع فيهما اختلاف ، كما لم يقع فى [ترتيب] الآيات[6] .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) الإتقان (١/ ٢٢٢ - ٢٢٤) نقلاً عن ابن أشتة فى المصاحف من روية أبى جعفر الكوفى وجرير بن عبد الحميد ، وانظر المصاحف لابن أبى داود (٣٤ و٥٣ - ٥٤) وما بعدها ، والانتصار للقرآن ، للبلاقانى (١/ ١٦٥) وما بعدها .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) فى (ظ) : « والراءات » .

(٥) انظر المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (١/ ٥٤) وما بعدها .

(٦) قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مكانتها ومصادرها (٦٣) وما بعدها .

وقد منَّ الله علىّ بجواب لذلك نفيس ، وهو : أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرًا للرسم ، حتى لسور كاملة ، وآيات كثيرة ، فلا بدع أن يكون الترتيب العثمانى هو الذى استقر فى العرضة الأخيرة ، كالقراءات التى فى مصحفه ، ولم يبلغ ذلك أبيًّا وابن مسعود رضى الله عنهما ، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه فى مصاحفهما من القراءات التى تخالف المصحف العثمانى ، ولذلك كتب أُبىّ فى مصحفه سورة الحفد ، والخلع ، وهما منسوختان [1] .

فالحاصل أنى أقول : ترتيب كل [من] [2] المصاحف بتوقيف ، واستقر التوقيف فى العرضة الأخيرة على [الترتيب العثمانى ، كما أن جميع القراءات والمنسوخات] [3] المثبتة فى مصاحفهم بتوقيف ، واستقر التوقيف فى العرضة الأخيرة على القراءات [العثمانية ورتب أولئك ما كان عندهم] [4] ولم يبلغهم النسخ .

* * *

---

(١) انظر : الانتصار للقرآن ، للباقلانى (١/ ١٦٥) وما بعدها ، والإتقان (١/ ٢٢٣ ، ٢٢٦) عن ابن أشتة فى المصاحف وهما سورتا القنوت فى الوتر ، قال الحسين بن المنادى فى كتابه الناسخ والمنسوخ : ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت فى الوتر ، وتسمى بسورتى الخُلع والحفد ، الإتقان (٣/ ٨٥) ، وهى : « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجِدَّ بالكفار مُلْحِق » انظر مجمع الزوائد (٩/ ١٢٠) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) فى **المطبوعة** : « القراءات العثمانية ، ورتب أولئك على ما كان عندهم ، ولم يبلغهم ما استقر ، كما كتبوا القراءات المنسوخة » والمثبت من (ظ) وهو الصواب .

(٤) فى **المطبوعة** : « المنسوخات » والمثبت من (ظ) .

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس [(١)] ، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

قال الحسنُ البصريُّ [(٢)] : إن الله أودع علوم الكتاب السابقة فى القرآن ، ثم أودع علوم القرآن فى المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة (أخرجه البيهقىُّ فى شعب الإيمان) [(٣)] .

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قَرَّرَهُ الزمخشرى [(٤)] ، باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهى ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخلو [(٥)] عن هذه الأمور [(٦)] .

[و] **قال الإمام فخر الدين** [(٧)] : المقصود من القرآن كله تقرير أمور

---

(١) انظر البرهان (١/ ١٧ - ١٨) ، ومعانى القرآن ، للنحاس (١/ ٤٧) وما بعدها ، ونظم الدرر فى تناسق الآيات والسور ، للبقاعى (١/ ٢١) ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، للبقاعى (٢/ ٦٧) ، والكشاف (١/ ٤) بولاق ، ومن أسمائها : السبع المثانى ، والقرآن العظيم ، والوافية ، والكنز ، الإتقان (١/ ١٨٩ - ١٩١) .

(٢) هو الحسن بن أبى الحسن البصرى ؛ أحد سادات التابعين وكبرائهم ، توفى سنة ١١٠ هـ ، وفيات الأعيان ، لابن خلكان (١/ ١٢٨) وآداب الشيخ الحسن ، لابن الجوزى ص ٢١ وما بعدها .

(٣) الشعب : ٢ ورقة (٨٧) أ. دار الكتب المصرية .

(٤) هو محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى وتفسيره : الكشاف ، من أشهر الكتب صاحب قدم فى الأدب واللغة والنحو والتفسير ، إمام المعتزلة ، توفى سنة ٥٣٨ هـ إنباه الرواة (٣/ ٢٦٥) .

(٥) **فى المطبوعة** : « تخرج » والمثبت من (ظ) .

(٦) **انظر** : الكشاف (١/ ٤) وفيه (التعبد بالأمر والنهى) .

(٧) هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى صاحب التفسير المسمى : مفاتيح الغيب ، =

أربعة : الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر ، فقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يدل على الإلهيات ، وقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره وقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التى هى المقصد الأعظم من القرآن[(١)] .

وقال البيضاوى[(٢)] : هى مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ، ومنازل الأشقياء[(٣)] .

وقال الطِّيبى : هى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التى هى مناط الدين :

أحدها : علم الأصول ، ومعاقده معرفة الله عز وجل وصفاته ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ومعرفة المعاد[(٤)] ، وهو المومأ إليه بقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

وثانيها : علم الفروع ، وأسُّه العبادات ، وهو المراد بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾][(٥)] .

= توفى سنة ٦٠٦ هـ ، وفيات الأعيان (١/ ٤٧٤) (ويلاحظ أنه سوف يأتى ذكره كثيرًا ، وأفاد منه السيوطى فى مواضع شتى) .

(١) مفاتيح الغيب (١/ ٦٥) .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علىّ أبو الخير ، قاضى القضاة ناصر الدين البيضاوى ، كان إمامًا علامة ، عارفًا بالفقه والتفسير والأصلين ، بغية الوعاة (٢/ ٥٠ - ٥١) .

(٣) تفسير البيضاوى (١/ ٣٥) بحاشية الشهاب الخفاجى .

(٤) فى (ظ) : « النبوات » .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

وثالثها : علم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والالتجاء إلى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله : [﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

ورابعها : علم القصص والإخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية ، السعداء منهم والأشقياء ، وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعيده مسيئهم ، وهو المراد بقوله:] [١] ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة فى مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغى أن يقيد شىء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق [٢] .

وقال الغزالى [٣] فى « خواص القرآن » : مقاصد القرآن ستة : ثلاثة مهمة ، وثلاثة تتمة .

الأول : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها .

وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها .

وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) شرح الكشاف ، للطيبى ، مخطوط بالأزهرية : ج ١ ورقة ٢٩ أ ، وانظر : نظم الدرر (١/ ٢٢ - ٢٣) ومصاعد النظر للإشراف على السور ، للبقاعى (٢/ ٦٧) .

(٣) هو الشيخ الإمام البحر ، حُجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى ، الشافعى ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط ، توفى سنة ٥٠٥ هـ ، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢) وما بعدها .

إليه بقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

[حكاية أقوال الجاحدين ، وقد أُشير إليها بـ : ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ و ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾][1] .

وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) خواص القرآن الكريم ص ٣٧ .

سورة البقرة

قال بعض الأئمة [(١)] : تضمنت سورة الفاتحة : الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها فى دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى .

وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها .

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها كثير من المتشابه لما تمسك به النصارى .

فأوجب الحج فى آل عمران ، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه [(٢)] ، وكان خطاب النصارى فى آل عمران ، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبى صلَّ الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى فى آخر الأمر [(٣)] كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذى اتفق عليه الأنبياء ، فخوطب به جميع الناس ، والسُّور المدنية فيها خطاب من أقرَّ بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخوطبوا بيا أهل

---

(١) **انظر** : البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى (١/ ٢٦٠) وما بعدها .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ «١٩٦» الآية .

(٣) ثبت فى التاريخ أن الرسول صلَّ الله عليه وسلم جاهد اليهود وأخرجهم من دار الإسلام ، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى ، وإنما بدأت مجادلة إياهم بوفد نجران الذى تحدثت عنه سورة المائدة ، وأخرج الهيثمى فى مجمع الزوائد أنه قال لعلى كرَّم الله وجهــه : « يا على ، إن أنت وليت هذا الأمر بعدى ، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب » يريد النصارى (٩/ ١٣٠) .

الكتاب ، يا بنى إسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأمَّا سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس ، وهى نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنَّسَب والصِّهْر ، ولهذا افتتحت بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[1] [ثم][2] قال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[3] فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة ، والافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتتح بها مافى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء فى غاية الكثرة .

[و][4] ما المائدة فسورة العقود ، [و][4] تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، وبها تَمَّ[5] الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على المُحْرِم ، الذى هو من تمام الإحرام ، وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدين ، وعقوبة المعتدين من السُّرَّاق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال ، وإحلال الطيبات ، الذى هو من تمام عبادة الله ولهذا ذكر فيها ما يختصُّ بشريعة محمد صلَّى الله عليه وسلم كالوضوء][6] والتيمم ، والحكم بالقرآن على كل ذى دين .

---

(١) سورة النساء الآية : ١ .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من البرهان للزركشى ، وكذا فى (ظ) .

(٣) سورة النساء : ١ ، وانظر : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٠ - ٢٦١) والنص له .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) **فى المطبوعة** : « ونهاية » تحريف ، والمثبت من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر . **انظر** : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٢) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) . **نظر** : البرهان (١/ ٢٦٢) .

ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام ، وذكر فيها : أن من ارتد عوض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملاً ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل[1] لما فيها من إرشادات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب[2] . انتهى .

وقال بعضهم : افتتحت البقرة بقوله : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ كأنهم[3] لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم[4] الهداية إليه ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث على رضي الله عنه مرفوعًا : « الصراط المستقيم كتاب الله »[5] (وأخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود موقوفًا)[6] .

وهذا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة[7] .

وقال الخويى[8] : أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن عائشة رضى الله عنها (٢/ ٣١١) وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، والإمام أحمد فى المسند عن معاوية بن صالح عن عائشة رضى الله عنها (٦/ ١٨٨) ، **انظر** : البرهان (١/ ٢٦٢) .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى (١/ ٢٦١ - ٢٦٢) .

(٣) **فى المطبوعة** : « فإنهم » والمثبت من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : « سألتهم » تحريف . والمثبت من (ظ) .

(٥) أخرجه ابن جرير عن على من حديث حمزة الزيات ، جامع البيان (١/ ١٧٣) .

(٦) المستدرك (٤/ ٨٣) .

(٧) **انظر** : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٣٨) والنص له .

(٨) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس ، ونسبته إلى خوى مدينة بأذربيجان ، توفى بدمشق عام ٦٢٧ هـ . **انظر** : عيون الأنباء (٢/ ١٧١) ، شذرات الذهب (٣/ ٢٥) .

ثم إنه ذكر فى أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم فى الفاتحة ، فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم ، والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون ، والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم[١] . انتهى .

[و][٢] **أقول** : قد ظهر لى بحمد الله وجوهًا من هذه المناسبات :

أحدها : أن القاعدة التى استقرأتها[٣] القرآن : أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه ، وقد استمر[٤] معى ذلك فى غالب سور القرآن ، طويلها وقصيرها ، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة .

فقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تفصيله : ما وقع فيها من الأمر بالذكر فى عدة آيات ومن الدُّعاء فى قوله ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ « ١٨٦ » الآية ، وفى قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ « ٢٨٦ » ، وبالشكر فى قوله : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ « ١٥٢ » .

وقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تفصيله قوله : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا

(١) ذكر السيوطى : أن للخويى تفسيرًا نقل عنه فى الإتقان (٢/ ٧ ، ١٢ و٣/ ٢٩ و٤/ ١٤٤) ولم نعثر عليه ، ولعل هذا النقل منه .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٣) **فى المطبوعة** : « استقر بها » والمثبت من (ظ) .
(٤) **فى المطبوعة** : « استقر » والمثبت من (ظ) .

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «٢١ ، ٢٢» ، وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ «٢٩» ، ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذى هو مبدأ البشر [١] ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وذلك شرح إجمال [٢] ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد أومأ إليه بقوله فى قصة [توبة] [٣] آدم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ « ٥٤ » ، وفى قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله : ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ «١٢٦»] ، فقال ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ «١٢٦» .

وذلك لكونه رحمانًا . وما وقع فى قصة بنى إسرائيل : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ «٥٢» إلى أن أعاد الآية بجملتها فى قوله : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «١٦٣» . وذكر آية الدَّيْنِ [٤] إرشادًا للطالبين من العباد [٥] ، ورحمة بهم . ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر ، وما لا طاقة لهم به ، وختم بقوله : ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ﴾ «٢٨٦» ،

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ إلى قوله : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ﴾ «٣٠ - ٣٧» .

(٢) فى **المطبوعة** : «لإجمال» والمثبت من (ظ) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، ويلاحظ أن الآية المذكورة بعدها تتعلق بقوم موسى واتخاذهم العجل ، وأمر بالتوبة وتوبتهم ، لكن ما يتعلق بتوبة آدم ورد فى قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «٣٧» وكذلك قوله عز شأنه : ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (طه : ١٢٢) .

(٤) هى قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ﴾ «٢٨٢» الآية .

(٥) فى (ظ) «إرشادًا لعباده» .

وذلك شرح قوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

وقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة : ٤) . تفصيله : ما وقع من ذكر يوم القيامة فى عدة مواضع ، ومنها قوله : ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ «٢٨٤» . والدين [فى الفاتحة] : الحساب [فى البقرة] .

وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية ، وقد فصلت فى البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها : الطهارة ، والحيض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة ، وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع ، والعيد ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات ، والمعادن [(١)] ، والاعتكاف ، والصوم ، وأنواع الصدقات ، والبر ، والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث ، والوصية ، والوديعة ، والنكاح ، والصداق ، والطلاق ، والخُلع ، والرجعة ، والإيلاء ، والعِدَّة ، والرَّضاع ، والنَّفَقات ، والقِصاص ، والديات ، وقِتَال البُغاة ، والرِّدَّة ، والأشربة ، والجهاد والأطعمة والذبائح ، والأيمان ، والنُّذور ، والقضاء ، والشهادات والعتق .

فهذه أبواب الشريعة كُلُّها مذكورة فى هذه السورة [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ . شامل لعلم الأخلاق . وقد ذكر منها فى هذه السورة الجم الغفير ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإلانَةِ القول .

وقوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخره . تفصيله [(٣)] :

---

(١) فى (ظ) : « النبات والمعدن » .
(٢) **انظر** : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٠ - ٢٦١) .
(٣) فى « ظ » : تفسيره .

ما وقع فى السورة من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم من النصارى ، ولهذا ذكر فى الكعبة أنها قبلة إبراهيم ، فهى من صراط الذين أنعم عليهم ، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معًا ، ولذلك قال فى قِصَّتها : ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ «١٤٢» . تنبيهًا على أنها الصراط الذى سألوا الهداية إليه .

ثم ذكر : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ «١٤٥» . وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم . ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم . ثمّ قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ «٢١٣» . فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة .

وأيضًا قوله أول السورة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ «٢» إلى آخره فى وصف الكتاب ، إخبار بأن الصراط الذى سألوا الهداية إليه هو : ما تضمنه الكتاب وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر [من صفات المتقين] . ثم ذكر أحوال الكفرة ، ثم أحوال المنافقين ، وهم من اليهود ، وذلك [أيضًا](١) تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد بالكتاب(٢) .

وكذلك قوله هنا : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ «١٣٦» الآية . فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم . وقال فى آخرها : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ «١٣٦» تعريفًا

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم ، والتحذير منهم على وجه التفصيل ، وسيأتى تفصيل للصراط المستقيم فى آل عمران عن طريق التبصير بالعوائق النفسية التى تحول دون الإنسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدوًا للإنسان ، وبهذا تظهر عظمة الأسلوب القرآنى فى الإجمال والتفصيل ، وفى استيعابه كل شىء .

بالمغضوب عليهم والضالين الذين فَرَّقُوا بين الأنبياء . ولذلك عقبها بقوله : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ «١٣٧» . أى : إلى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم كما اهتديتم[(١)] .

فهذا ما ظهر لى ،واللَّهُ أَعْلَمُ بأسرار كتابه .

الوجه الثانى : أن الحديث والإجماع على تفسير ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ باليهود ، والضالين بالنصارى[(٢)] ، وقد ذكروا فى سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم فى الزمان ، فعقَّب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النَّصارى لم يقع بذكر الخطاب[(٣)] .

ثم بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى[(٤)] ، فإن ثمانين آية من أولها نازلة فى وفد نصارى نجران ، كما ورد فى سبب نزولها[(٥)] وَخُتِمَتْ بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٩٩) ، وهى فى النجاشى وأصحابه من

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١/ ١٢) وما بعدها ، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ٦٧) وما بعدها .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/ ٣٧٨) والترمذى (٨/ ٢٨٦ - ٢٨٨) بتحفة الأحوذى تفسير النبى صلَّى الله عليه وسلم للمغضوب عليهم والضالين : باليهود والنصارى عن عدى بن حاتم **وانظر** : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤٦) .

(٣) وإنما جاء على أسلوب الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ «٦٢» ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ «١١١» الآية .

(٤) فى (ظ) : « خطابهم للنصارى » .

(٥) **انظر** : تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٠) لمعرفة سبب النزول ، وقصة وفد نجران فى سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٣) وما بعدها .

مؤمنى النصارى ، كما ورد به الحديث[1] . وهذا وجه بديع فى ترتيب السُّورَتَيْنِ ، كأنه لما ذكر فى الفاتحة الفريقين ، قص فى كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ، ولهذا كان صدر سورة النساء فى ذكر اليهود ، وآخرها فى ذكر النصارى[2] .

والوجه الثالث : أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سُمّيَتْ فى أثر : « فسطاط القرآن »[3] . الذى هو : المدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع : أنها أطول سورة فى القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال[4] ، فناسب البداءة بأطولها .

الوجه الخامس : أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب الابتداء[5] بها ، فإن للأولية نوعًا من الأولوية .

الوجه السادس : أن سورة الفاتحة لما[6] ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً ، وخُتمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم فى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلاً ، وتضمن آخرها

---

(١) فى إسلام النجاشى . **انظر** : البخارى فى الجنائز (٢/ ١٠٨) ومسلم فى الجنائز (٣/ ٥٤ ، ٥٥) **وانظر** : تفسير الطبرى (٧/ ٤٩٦) .

(٢) وذلك قوله فى النساء : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء : ٤٦) وما بعدها وآخرها قوله : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (النساء : ١٧١) الآية .

(٣) أخرجه الدارمى (٢/ ٤٤٦) عن خالد بن معدان .

(٤) السبع الطوال هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ، وسيأتى سبب وضع الأنفال والتوبة بينها .

(٥) **فى المطبوعة** : «البداءة» ، والمثبت من (ظ) .

(٦) **فى المطبوعة** : « كما » والمثبت من (ظ) .

أيضًا الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ «٢٨٥» فتآخت السورتان وتشابهتا فى المقطع ، وذلك من وجوه المناسبة فى التتالى والتناسق . وقد ورد فى الحديث التأمين فى آخر سورة البقرة كما هو مشروع فى آخر الفاتحة [١] ، فهذه ستة وجوه ظهرت لى ، ولله الحمد والمنّة .

* * *

(١) كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول : (آمين) آخر البقرة كما أخرج عنه ابن جرير ، رواه وكيع عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن رجل ، عن معاذ (تفسير ابن كثير ١/٥٠٩) .

سورة آل عمران

قد تقدّم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها .

وقال الإمام : لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة ، وكالمكملة لها ، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح فى منطوق مطلعها بما طوى فى مفهوم [مطلع] (١) تلك (٢) .

وأقول : قد ظهر لى بحمد الله وجوه من المناسبات .

أحدها : مراعاة القاعدة التى قررتها ، من شرح كل سورة لإجمال ما فى السورة قبلها ، وذلك هنا فى عدة مواضع .

منها : ما أشار إليه الإمام ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه . وقال فى آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ «٣» : وذلك بسط وإطناب ، لنفى الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر فى البقرة إنزال الكتاب مجملاً ، وقسّمه هنا إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله (٣) .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (البقرة : ٤) [مجملاً] (٤) ، وقال هنا : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) مفهوم مطلع البقرة : الدعوة إلى الإيمان بالله فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة : ٣) ، وهو مصرّحٌ به فى مطلع هذه بقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ «٢» ، وانظر مفاتيح الغيب (١/ ٣٢٠) وما بعدها .

(٣) وذلك قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ «٧» الآية .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

لِّلنَّاسِ ﴾ «٣ ، ٤» مفصلاً . وصرّح بذكر الإنجيل هنا ، لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به فى سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة ؛ لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع فى سورة البقرة مجملاً بقوله : ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾«١٩٠ ، ٢٤٤» [وقوله] : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ (البقرة : ٢١٦) وفصلت هنا قصة أُحُد بكمالها[١] .

ومنها : أنه أوجز فى البقرة ذكر المقتولين فى سبيل الله بقوله : ﴿ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٤) وزاد هنا : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ «١٦٩ ، ١٧٠» الآيتين . وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة : ٢٤٧) . وقال هنا : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ «٢٦» . فزاد إطنابًا وتفصيلاً .

ومنها : أنه حذّر من الرباء فى البقرة ، ولم يزد على لفظ الربا إيجازًا[٢] وزاد هنا قوله[٣] : ﴿ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ «١٣٠» وذلك[٤] بيان وبسط .

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ «١٥٢» إلى ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ «١٥٨» .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (البقرة : ٢٧٥) ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ (البقرة : ٢٧٦) .

(٣) كلمة : « قوله » ليست فى (ظ) .

(٤) فى (ظ) : « وهو » .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ﴾ (البقرة : ١٩٦) وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً ، وفصله هنا بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ «٩٧» . وزاد : بيان شرط الوجوب بقوله : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ «٩٧» . ثم زاد : تكفير من جحد وجوبه بقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ «٩٧» .

ومنها : أنه قال فى البقرة فى أهل الكتاب : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ (البقرة : ٨٣) . فأجمل القليل ، وفصَّله هنا بقوله : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ... ﴾ «١١٣ ، ١١٤» الآيتين .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٩) . فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضًا لا تصريحًا ، وكذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) . فى تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام ، وأتى فى هذه [السورة][1] بصريح البيان فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ «١١٠» . فقوله : ﴿ كُنتُمْ ﴾ أصْرَحُ فى قدم ذلك من ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ ثم زاد [بيان] وجه الخيرية بقوله : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ «١١٠»[2] .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران : أن الصراط المستقيم ذكر مجملاً فى الفاتحة ، ثم عينه فى أول البقرة بقوله ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ثم عين طريق السير عليه فى آل عمران بقوله : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ «١٠١» .
ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله ، بالاعتصام بحبل الله ، فلما كان الصراط المستقيم دقيقًا جدًا ، ويحتاج السائر عليه إلى غاية اليقظة ، حث الله على الاعتصام بكتاب الله ، وسماه حبلًا ليناسب الصراط الدقيق ، حيث يحمى السائر عليه من الزلل ، وحذر من الفرقة ، =

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ (البقرة : ١٨٨) . الآية . وبسط الوعيد هنا بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ «٧٧» . الآية ، وصدره بقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ «٧٥» .

فهذه عدة مواضع وقعت فى البقرة مجملة ، وفى آل عمران تفصيلها .

الوجه الثانى : أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحادًا ، وتلاحمًا متأكدًا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذى هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم[1] . وتكررت هنا آية : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) . بكمالها ، ولذلك أيضًا ذكر فى هذه ما هو تال لما ذكر فى تلك ، أو لازم فى تلك ، أو لازم له .

فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم فى الأرحام[2] ، وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده[3] ، وألطف من ذلك : أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر

= ودعا إلى التذكير الدائم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يعتبر بمثابة التعليم الدائم ، وتصحيح الأخطاء الناشئة عن الهوى . وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاعى الجزء الأول ورقة : ١٧٧ أ ، ب) .

(١) وذلك قوله فى أول آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ «٣ ، ٤» .

(٢) وذلك قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ «٦» .

(٣) خلق آدم فى البقرة فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) وخلق أولاده فى آل عمران فى قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ «٦» .

فى هذه نظيره فى الخلق من غير أب ، وهو عيسى عليه السلام (١) ، ولذلك ضرب له المثل بآدم ، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور ، وآدم أول فى الوجود وسابق ، ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتتمة لها ، فمختصة بالإعراب (٢) [والبيان] .

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا فى مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم ، لتثبت فى أذهانهم ، فلا تأتى قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها (٣) من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم فى قوله : ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ «٥٩» الآية ، والمقيس عليه لابد وأن يكون معلومًا ، لتتم الحُجة بالقياس ، فكانت قصة آدم والسورة التى هى فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين : أنه قال فى البقرة فى صفة النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤) ، ولم يقل فى الجنة : أعدت للمتقين ، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معًا (٤) ، وقال ذلك فى آل عمران (٥) فى قوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ «١٣٣» ، فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة .

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها .

---

(١) وذلك قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ «٥٩» .

(٢) فى (ظ) : « فخصت بالأغرب » .

(٣) فى المطبوعة ما يشبهها وما أثبتناه من (ظ) .

(٤) وذلك قوله فى البقرة : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة : ٥ ، ٦) .

(٥) **فى المطبوعة** : « آخر آل عمران » .

وأمر آخر استقرأته ، وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد . وفى السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها ، وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة ، فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ « ٢٠٠ » .

وافتتحت البقرة بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (البقرة : ٤) ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ « ١٩٩ » . فللّه الحمد على ما ألهم .

وقد ورد أنه لما نزلت : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة : ٢٤٥) . قالت [١] اليهود : يا محمد ، افتقر ربك ، فسأل عباده القرض [٢] ، فنزل قوله : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ « ١٨١ » [٣] [٤] فذلك أيضًا من تلازم السورتين .

ووقع فى البقرة حكاية عن إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ (البقرة : ١٢٩) الآية ، ونزل فى هذه : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ « ١٦٤ » ، وذلك أيضًا من تلازم السورتين .

* * *

(١) فى **المطبوعة** : « قال » والمثبت من (ظ) .

(٢) فى **المطبوعة** : « القرض عبادة » من (ظ) .

(٣) فى **المطبوعة** : « تقدمت وجوه » ، بل تقدم وجه واحد ذكره المصنفُ ، ويؤيد المثبت كذلك نسخة (ظ) .

(٤) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٧/ ٤٤٢) ، وعزاه إلى ابن أبى حاتم وابن مردويه .

سُورَةُ النِّسَاءِ

قد تقدّم وجه مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضًا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة .

فمنها : أنه أجمل فى البقرة قوله : ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٢١) ، وزاد هنا : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ « ١ » .

وانظر لما كانت آية التقوى فى سورة البقرة غاية ، -جعلها فى أول هذه السورة التالية لها مبدأ[1] .

ومنها : أنه أجمل فى سورة البقرة : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة : ٣٥) ، وبيَّن هنا أن زوجته خلقت منه فى قوله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ « ١ » .

ومنها : أنه أجمل فى البقرة آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث ، فى قوله : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَالِكَ ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، وفصل ذلك فى هذه السورة أبلغ تفصيل[2] .

و[منها أنه][3] فصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك .

---

(١) آية التقوى فى البقرة هى : ﴿ ذَالِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ٢) ، وهى غاية ، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون إلا للمتقين ، فالتقوى غاية الهداية ، أما فى سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها فى قوله : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ « ١ » الآية ، وبين وسائل تحقيقها فى نفس الآية .

(٢) وذلك فى الآيات : (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٣ ، ١٧٦) من سورة النساء .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

ومنها : أنه[1] قال فى البقرة : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ (البقرة : ٢٢١) فذكر نكاح الأَمَة إجمالاً ، وفصل هنا شروطه[2] .

ومنها : أنه ذكر الصداق فى البقرة مجملاً بقوله : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ (البقرة : ٢٢٩) وشرحه هنا مفصلاً[3] .

ومنها : أنه ذكر هناك الخُلْع ، وذكر هنا أسبابه ودواعيه ، من النشوز وما يترتب عليه ، وبعث الحكمين[4] .

ومنها : أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين ، وتفضيلهم درجات ، والهجرة ، ما وقع هناك مجملاً ، أو مرموزًا[5] .

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : تفسير : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فى قوله[6] : ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ «٦٩» .

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه :

---

(١) فى المطبوعة : « فإنه قال » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ «٢٥» الآية .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ إلى ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ «٢٠ ، ٢١» .

(٤) قال عن الخُلع فى البقرة : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) الآية ، وهنا قال : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ «٣٤ ، ٣٥» . وهذا فى أسباب الخُلع .

(٥) قال هنا : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ «٩٥ – ٩٦» ، وقال هناك : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ (البقرة : ١٥٤) الآية ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٦) الآية ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢١٨) .

(٦) فى المطبوعة : « بقوله » ، والمثبت من (ظ) .

منها : أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة به [١] وذلك [٢] من آكد [٣] وجوه المناسبات فى ترتيب السور ، وهو نوع من [أنواع] [٤] البديع يسمى : تشابه الأطراف .

ومنها : أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة وذكر فى هذه السورة ذيلها ، وهو قوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ «٨٨» ، فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أُحد ، كما فى الحديث [٥] .

ومنها : أن فى آل عمران ذكرت الغزوة التى بعد أُحد بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ (آل عمران : ١٧٢) [٦] وأشير إليها هنا بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ «١٠٤» الآية [٧] .

وبهذين الوجهين [٨] عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من

---

(١) ختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) وافتتحت بقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (النساء : ١) .

(٢) **فى المطبوعة** : « وهذا » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) **فى المطبوعة** : « أكبر » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) أخرجه البخارى فى التفسير (٦/ ٥٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، ومسلم فى المنافقين (٨/ ١٢٨) ، وأحمد فى المسند (٥/ ١٨٤) ، وفيه : أن الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أُحد ، فقال فريق : بقتلهم ، وقال فريق : لا ، فنزلت .

(٦) هو يوم حمراء الأسد ، كان عقب أُحد ، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة ، فبلغ ذلك رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم ، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح ، ليريهم أن بهم قوة وجلدًا . **انظر** : البخارى (٥/ ١٣٠) والمستدرك (٢/ ٢٩٨) وسيرة ابن هشام (٢/ ١٠١) .

(٧) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد فى سورة محمد تفصيل سبب النهى عن الوهن فى قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٥) ، فهناك واقعة خاصة ، وهذا عام فى قانون الحرب .

(٨) **فى المطبوعة** : « الوجين » تحريف .

تقديمها عليها فى مصحف ابن مسعود ؛ لأن المذكور هنا ذيل ما فى آل عمران وتابعه ولاحقه[1] ، فكانت بالتأخير أنسب .

ومنها : أنه [لما][2] ذكر فى آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحُجة بآدم ، وفى ذلك تبرئة لأمه ، خلافًا لما زعم اليهود ، وتقريرًا لعبوديته ، خلافًا لما ادعته النصارى ، وذكر فى هذه السورة الرد على الفريقين معًا : فرد على اليهود بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ «١٥٦» وعلى النصارى بقوله : ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ «١٧١ ، ١٧٢» .

ومنها : أنه لما ذكر فى آل عمران : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥) ورد هنا على من زعم قتله بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ﴾ «١٥٧ ، ١٥٨» .

ومنها : أنه لما قال فى آل عمران فى المتشابه[3] : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ (آل عمران : ٧) . قال هنا : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ «١٦٢» الآية .

ومنها : أنه لما قال فى آل عمران : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ

---

(١) **فى المطبوعة** : «ولاحقه وتابعه» ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) المتشابه فى القرآن يأتى على معنيين : **أولهما** : المتماثل فى اللفظ وهو غير مراد هنا ، **والثانى** : ما جاء مؤيدًا للواجبات بأصله ، رادًا بوصفه ، فتشابه على السامع علمه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأمد الأقصى ورقة ١٢٠ أ) .

ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (آل عمران : ١٤) الآية . فصل هذه الأشياء فى السورة التى بعدها على نسق ما وقعت فى الآية ، ليعلم ما أحل الله من ذلك فيقتصر عليه ، وما حرم فلا يتعدى إليه ، لميل النفس إليه .

ففصل[(١)] فى هذه السورة أحكام النساء ، ومباحاتها[(٢)] ، للابتداء بها فى الآية السابقة فى آل عمران ، ولم يحتج إلى تفصيل البنين ؛ لأن الأولاد أمر[(٣)] لازم [للإنسان][(٤)] لا يترك منه شىء كما يترك من النساء ، فليس فيهم مباح فيحتاج إلى بيانه ، ومع ذلك أشير إليهم فى قوله : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ «٩» .

ثم فصل فى سورة المائدة أحكام السراق ، وقطاع الطريق[(٥)] ، لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعين فى الآية بعد النساء والبنين . ووقع فى سورة النساء إشارة إلى ذلك فى قسمة المواريث .

ثم فصل فى سورة الأنعام أمر الحيوان والحرث ، وهو بقية المذكور فى آية آل عمران . فانظر إلى هذه اللطيفة التى منَّ الله بإلهامها !

---

(١) **فى المطبوعة** : « فقد جاء » ، والمثبت من (ظ) ويؤيده السياق أيضًا .

(٢) وذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ « ٢٢ – ٢٧» ، وفى (ظ) : « ومباحاتها ومحرماتها » .

(٣) **فى المطبوعة** : « تحريم البنين » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ز) .

(٥) وذلك فى قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ ﴾ (المائدة : ٣٣) .

ثم ظهر لى أن سورة النساء فَصَّل فيها ذكر البنين أيضًا ، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم وكان من ذلك إيثارهم على البنات فى الميراث ، وتخصيصهم به دونهن ، تولى قسمة المواريث بنفسه ، فقال : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ «١١» . وقال : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ ﴾ «٧» . فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث ، لحبهم إياهم[١] ، فكان ذلك تفصيلاً لما يحل ويحرم من إيثار البنين ، اللازم عن الحب ، وفى ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة وما يحرم .

ومن الوجوه المناسبة لتقدم آل عمران على النساء : اشتراكها مع البقرة فى الافتتاح بإنزال الكتاب ، وفى الافتتاح بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وسائر السور المفتتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة ، كيونس وتواليها ، ومريم وطه ، والطواسين ، و ﴿ الٓمٓ ﴾ العنكبوت وتواليها ، والحواميم ، وفى ذلك أول دليل على اعتبار المناسبة فى الترتيب بأوائل السور .

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوءًا به سوى بين الأعراف ويونس اجتهادًا لا توقيفًا [كما سيأتى][٢] ، والفصل بالزمر بين ﴿ حمٓ ﴾ غافر و ﴿ صٓ ﴾ وسيأتى .

ومن الوجوه فى ذلك أيضًا : اشتراكهما فى التسمية بالزهراوين فى حديث : « اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران »[٣] فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتى الفلق والناس ، المشتركتين فى التسمية بالمعوِّذتين .

---

(١) فى **المطبوعة** : « لهم » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) رواه مسلم برقم (٨٠٤) وغيره ، **والزهراوان** : أى المضيئتان ، واحدتها زهراء . **انظر** : « اللسان » (زهر) .

سُورَةُ المَائِدَةِ

وقد تقدَّم وجه فى مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضًا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة ، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها فى البقرة (١) ، وكذا ما حرمه (٢) الكفار تبعًا لآبائهم فى البقرة موجز (٣) وفى هذه السورة مطنب أبلغ إطناب فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ . . . ﴾ «١٠٣ ، ١٠٤» .

وفى البقرة ذكر القصاص فى القتلى (٤) ، وهنا ذكر أول من سن القتل ، والسبب الذى لأجله وقع ، وقال : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

---

(١) قال تعالى هنا : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ إلى ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ «٣ – ٥» ، أما فى البقرة فلم يكن هذا التفصيل ، إذ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾ (البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) فى **المطبوعة** : «أخرجه» ، تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) فى البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

(٤) من دلائل الترتيب أنه قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ثم زاد بيانًا فى نفس السورة ، فقال : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) ، ثم قال ﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ، ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان فى النساء فقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء : ٩٢) ، وزاد تفصيل القصاص فيما ساقه المؤلف فى الآية (٢٢) المائدة ، ثم فصل أحكام القصاص فى قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ (المائدة : ٤٥) .
وهذا تدرج بديع ويدل على إحكام الترتيب والتلاحم .

ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ «٣٢» ، وذلك أبسط من قوله [فى البقرة] : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

وفى البقرة :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ (البقرة : ٥٨) ، وذكرت[1] قصتها [هنا مطولة . وذكر فى البقرة من ارتد مقتصرًا عليه ، وقال][2] هنا : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ «٥٤» .

وفى البقرة قصة الأيمان موجزة ، وزاد هنا بسطًا بذكر الكفارة[3] .

وفى البقرة قال فى الخمر والميسر : ﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة : ٢١٩) . وزاد فى هذه السورة ذمها ، وصرح بتحريمها[4] .

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين فى قوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ «٦٠» الآية . وقوله : ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ «٧٧» .

وأما اعتلاقها بسورة النساء ، فقد ظهر لى فيه وجه بديع جدًا . وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا ،

---

(١) فى **المطبوعة** : «وذكر فى» ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) قال هنا : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ «٨٩» .
وقال فى البقرة : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٥) .

(٤) فى هذه السورة قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ «٩٠ ، ٩١» الآية .

فالصريح : عقود الأنكحة ، وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، فى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ (النساء : ٣٣) . وعقد الأيمان فى هذه الآية ، وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان فى قوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ (النساء : ٩٠) . ، وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ ﴾ (النساء : ٩٢) .

والضمنى : عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية ، والإجارة ، وغير ذلك من الداخل فى عموم قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء : ٥٨) ، فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود ، فكأنه قيل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ «١» التى فرغ من ذكرها فى السورة التى تمت ، فكان ذلك غاية فى التلاحم والتناسب والارتباط .

ووجه آخر فى تقديم سورة النساء ، وتأخير سورة المائدة ، وهو : أن تلك أولها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ (النساء : ١) ، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهو أشبه بخطاب [الكفار وتنزيل][1] المكى ، [وهذه أولها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ «١» وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهو أشبه بخطاب المدنى][2] وتقديم العام[3] وشبه المكى أنسب .

ثم إن هاتين السورتين فى التلازم[4] والاتحاد نظير البقرة وآل عمران ، فتلكما فى تقرير الأصول ، من الوحدانية ، والكتاب ،

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) يريد بالعام : الخطاب بيا أيها الناس ، فهو أعم من ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أو ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ «١٥» .

(٤) **فى المطبوعة** : « التقديم » ، والمثبت من (ظ) .

والنبوة ، وهاتان فى تقرير الفروع الحكمية[(١)] .

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك[(٢)] .

وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء[(٣)] ، فكأنهما سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى .

ولما وقع فى سورة النساء : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (النساء : ١٠٥) الآيات ، وكانت[(٤)] نازلة فى قصة سارق سرق درعًا[(٥)] ، فصل فى سورة المائدة أحكام السراق والخائنين .

ولما ذكر فى سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس ، ذكر فى سورة المائدة آيات فى الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار ، وكرر قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ «٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦» .

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات ، وحسن ترتيبها ، وتلاحمها ، وتناسقها ، وتلازمها .

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ٦٧ ، ٦٨ و٨٨) وما بعدها .

(٢) ختام المائدة قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ «١٢٠» وأول النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء : ١) الآية ، وهو دليل القدرة .

(٣) بدء الخلق فى أول النساء قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء : ١) الآية ، والمنتهى فى ختام المائدة قوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ «١١٩» الآية .

(٤) **فى المطبوعة** : « فكانت » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) قصة الدرع أخرجها ابن كثير فى التفسير (٢/ ٣٥٨ ، ٣٥٩) ، وعزاها إلى ابن مردويه ، من طريق عطية العوفى ، ورواه الترمذى فى حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح (٨/ ٣٩٥ - ٣٩٩) بتحفة الأحوذى ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٨٥ - ٣٨٨) وانظر إرشاد الرحمن فى المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للأجهورى ورقة : ١٣٦ أ ، ب لزيادة التفاصيل .

وقد افتتحت البقرة التى هى أول ما نزل فى المدينة [١] ، وختمت بالمائدة التى هى آخر ما نزل بها ، كما فى حديث الترمذى [٢] .

* * *

(١) فى **المطبوعة** : «بالمدينة» ، والمثبت من (ظ) .

(٢) أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما (٨/ ٤٣٦ ، ٤٣٧) : (آخر سورة نزلت المائدة والفتح ، وقال المباركفورى : رواه الشيخان عن البراء آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ (النساء : ١٧٦) وآخر سورة نزلت براءة ، ورد البيهقى هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بما عنده ، وقال الباقلانى : ليس فى هذه الأقوال شىء مرفوع إلى النبى صلَّى الله عليه وسلم وكل واحد قال بضرب اجتهاد (تحفة الأحوذى ٨/ ٤٣٦ ، ٤٣٧) ، وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٣٥) .

سُورَةُ الأَنْعَامِ

قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائدة : أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمتان كما قال : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الزمر : ٧٥) .

و [أقول] [١] قد ظهر لى بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه فى آية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [٢] . أنه لما ذكر فى آخر المائدة : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ (المائدة : ١٢٠) على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فى آخر المائدة ، وضمَّن قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط [جميع] [٣] : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [فى آخر المائدة] .

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنسانى ، وقضى له أجلاً مسمى ، وجعل له أجلاً آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون قرنًا بعد قرنًا ، ثم قال : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾ «١٢» ، فأثبت له ملك جميع المنظورات ثم قال : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ «١٣» ، فأثبت له ملك جميع المظروفات فى [٤] الزمان ، ثم ذكر أنه خلق سائر

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) ما بين المعقوفين من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : «لظرفى» ، والمثبت من (ظ) .

الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن من النيرين ، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حمولة وفرش ، وكل ذلك تفصيل لملكه ما فيهن ، وهذه مناسبة جليلة (١) .

و (٢) لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك ، أكثر فيها من ذكر الرب الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى والملكوتى ، والملكى والشيطانى ، والحيوانى والنباتى ، وما تضمنته من الوصايا ، فكلها متعلقة بالمعاش والقوام الدنيوى (٣) ، ثم أشار إلى أشراط الساعة [والبعث] (٤) .

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها ، وما يتعلق بها ، وما يرجع إليها ، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها (٥) ، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها .

وهى فى جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة فى جمعها [الأصول و] (٦) العلوم والمصالح الدينية ، وما ذكر فيها من

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ١١٨) .
(٢) فى **المطبوعة** : « ثم » ، والمثبت من (ظ) .
(٣) فى **المطبوعة** : « متعلق بالقوام والمعاش » ، والمثبت من (ظ) .
(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وانظر مصاعد النظر (٢/ ١١٨ ، ١١٩) .
(٥) الأنعام مكية وقد نقل السيوطى ذلك عن ابن الضريس فى فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازى إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، الإتقان (١/ ٤٢) .
(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

العبادات المحضة ، فعلى وجه الاختصار [١] والإيماء ، كنظير ما وقع فى البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه ، فإنه على وجه الإيجاز [٢] والإشارة :

فإن قلت : فَلِمَ لا أفتتح القرآن بهذه السورة ، مقدَّمة على سورة البقرة ؛ لأن بدء الخلق سابق [٣] على الأحكام والتعبدات ؟!

قلت : للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا ، ولأن [٤] المقصود [من الخلق] [٥] إنما هو العبادة ، فقدم ما هو الأهم فى نظر الشرع [٦] ؛ ولأن علم بدء الخلق كالفَضْلَة ، وعلم [٧] الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد ،فلذلك لا ينبغى النظر فى علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر فى علم الأحكام وإتقانه .

ثم ظهر لى بحمد الله وجه آخر ، أتقن مما تقدم ، وهو : أنه لما ذكر فى سورة المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ (المائدة : ٨٧) إلى آخره [ثم ذكر بعده : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾ (المائدة : ١٠٣) إلى آخره] [٨] فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء

---

(١) **فى المطبوعة** : « سبيل الإيجاز » ، والمثبت من (ظ) .
(٢) **فى المطبوعة** : « سبيل الاختصار » ، والمثبت من (ظ) .
(٣) **فى المطبوعة** : « مقدم » ، والمثبت من (ظ) .
(٤) **فى المطبوعة** : « و » ، والمثبت من (ظ) .
(٥) ما بين المعقوفين إضافة .
(٦) ولهذا جاء فى البقرة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة : ٢١) وليس فى القرآن غيره بلفظه ، قال الكرمانى : العبادة فى الآية : التوحيد ، وهو أول ما يلزم العبد من المعارف ، فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد فى القرآن ، ثم ذكر سائر المعارف ، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار فى القرآن) (٢٢) .
(٧) **فى المطبوعة** : « وعلوم » ، والمثبت من (ظ) .
(٨) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئًا مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار فى صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار فى صنيعهم ، فأتى به على وجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة [1] فكانت هذه السورة شرحًا لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلاً وبسطًا ، وإتمامًا وإطنابًا .

وافتتحت بذكر الخلق والملك [2] ؛ لأن الخالق والمالك هو الذى له التصرف فى ملكه ، ومخلوقاته إباحة ومنعًا ، وتحريمًا وتحليلاً ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف فى ملكه .

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وبالبقرة [3] من حيث شرحها لإجمال قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١) ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة : ٢٩) ، وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله : ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ (آل عمران : ١٤) ، وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) . الآية .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق، والتقبيح لما حرموه على

---

(١) وهذا البيان الكامل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ إلى ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ «١٣٦ - ١٣٩» .

(٢) وذلك قوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إلى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ «١ - ٣» .

(٣) فى **المطبوعة** : « وللبقرة » ، والمثبت من (ظ) .

أزواجهم ، وقتل البنات بالوأد[١] .

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها[٢] .

وفى افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة .

الأول : افتتاحها بالحمد .

والثانى : مشابهتها للبقرة ، المفتتح بها السور المدنية ، من حيث أن كلًا منهما نزل مشيعًا . ففى حديث أحمد : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكًا »[٣] ، وروى الطبرانى وغيره من طرق : « أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك » ، وفى رواية : « خمسمائة ملك »[٤] .

ووجه آخر ، وهو : أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد . [فأول القرآن سورة ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾][٥] ، وهذه للربع الثانى ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع .

---

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق ، وما حرموه على أزواجهم ، أما تقبيح قتل البنات بالوأد فجاء عقبه فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ « ١٤٠ » .

(٢) الأطعمة ذكرت هنا مفصلة من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ « ١٤١ - ١٤٨ » .

(٣) أخرجه أحمد فى « المسند » (٥/٢٦) عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، وأخرج أوله الترمذى (٨/١٨١) بتحفة الأحوذى ، والدارمى فى فضائل القرآن عن ابن مسعود رضي الله عنه (٢/٤٤٧) ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٣١١) وعزاه للطبرانى .

(٤) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر رضى الله عنهما (٧/١٩ ، ٢٠) وفيه (أنزلت جملة واحدة) وفيه (لهم زجل بالتسبيح والتحميد) وعزاه للطبرانى وقال : فيه يوسف الصفار ، وهو ضعيف ، وقال ابن الجوزى : متروك (العلل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطى عن ابن الصلاح فى فتاواه رواية تخالف ذلك أنها لم تنزل جملة ، بل نزلت منها آيات بالمدينة ، **قيل** : ثلاث ، **وقيل** : غير ذلك . (الإتقان : ١/١٣٧) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

وجميع هذه الوجوه التى استنبطتها من المناسبات بالنسبة إلى أسرار القرآن[1] كنقطة من[2] بحر .

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق ، وهو قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ «١٢» ، ففى الصحيح : « لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتابًا عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[3] .

* * *

(١) فى **المطبوعة** : « للقرآن » ، والمثبت من (ظ) .
(٢) فى **المطبوعة** : « عن » والمثبت من (ظ) .
(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٤/ ١٢٩) وفيه (كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش) .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

أقول : مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمنى الله سبحانه : أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ (الأنعام : ٢) ، وقال فى بيان القرون : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ (الأنعام : ٦) ، وأشير فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال ، لا التفصيل ، ذُكرت هذه السورة عقبها ، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها .

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط فى سورة كما بسطت فيها(١) ، وذلك تفصيل إجمال قوله : ﴿ خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ (الأنعام : ٢) ، ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم(٢) تفصيلاً تامًّا شافيًا مستوعبًا ، لم يقع نظيره فى سورة غيرها(٣) ، وذلك بسط حال القرون المهلَكة ورسلهم ، فكانت هذه السورة شرحًا لتلك الآيات الثلاث .

وأيضًا ، فذلك تفصيل قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام : ٦) ، ولهذا صدَّر هذه السورة بخلق آدم الذى جعله الله فى الأرض خليفة(٤) . وقال فى قصة عاد : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ «٦٩»

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ إلى ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ «١١ – ٢٥» .

(٢) فى (ظ) : « وكيف هلاكهم » .

(٣) وذلك من قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ إلى ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ «٥٩ – ١٧٦» .

(٤) وذلك فى الآية رقم (١١) إلى آخر الآية رقم (٢٥) .

وفى قصة ثمود : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ «٧٤» .

وأيضًا فقد قال فى الأنعام : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام : ٥٤) وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ «١٥٦» إلى آخره فبيَّن من كتبها لهم .

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو : أنه قد تقدم هناك : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) ، وقوله : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام : ١٥٥) ، فافتتح هذه السورة أيضًا [بالأمر][1] باتباع الكتاب فى قوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إلى [قوله][1] ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ « ٢ ، ٣» .

وأيضًا لما تقدم فى الأنعام : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٦٤) . قال فى مفتتح هذه السورة : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ «٦ ، ٧» . وذلك شرح التنبئة المذكورة .

وأيضًا فلما قال فى الأنعام : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام : ١٦٠) الآية . وذلك لا يظهر إلا فى الميزان ، افتتح هذه السورة بذكر الوزن ، فقال : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ «٨» . ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو من زادت حسناته على سيئاته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيئاته على حسناته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم[2] .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من « ظ » .
(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ١٣٠ - ١٣١) .

سُورَةُ الأَنفَالِ

اعلم أن وضع هذه السورة وبراءة [(١)] ليس بتوقيف من الرسول صلىَّ الله عليه وسلم والصحابة ، كما هو الراجح فى سائر السور ، بل اجتهاد من عثمان رضى الله عنه .

وقد كان يظهر فى بادئ الرأى : أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود ، لاشتراك كل [منهما] [(٢)] فى اشتمالها على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصًا أن الحديث ورد فى فضل السبع الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تُسمى بذلك كما أخرجه البيهقى فى الدلائل [(٣)] . ففى فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير من [(٤)] سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة .

وقد استشكل ذلك قديمًا حبر الأم ابن عباس ، فأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى [(٥)] ،

---

(١) **فى المطبوعة** : « وبراءة هنا » خطأ .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) دلائل النبوة ، للبيهقى (٧/ ١٥٢ ، ١٥٣) والسبع الطوال كما أخرج النسائى (١/ ١١٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، **قال الراوى** : وذكر السابعة فنسيتها ، وأورد السيوطى نقلاً عن ابن أبى حاتم وغيره عن سعيد بن جبير : أن السابعة يونس (الإتقان : ١/ ٢٢٠) .

(٤) **فى المطبوعة** : « عن » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) **المثانى** : إما أنها من الثناء ، أو فيها الثناء والدعاء ، أو لأنها تثنى بغيرها (الإتقان : ١/ ١٩٠) ، **وقيل** : لأنها ثانية للمئين ، تالية لها ، **وقيل** : لتثنية الأمثال فيها بالعبر ، حكاه السيوطى عن النكزاوى (الإتقان : ١/ ٢٢٠) .

وإلى براءة وهى من المئين [1] ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل [بالمدينة] [2] ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم [3] ، ووضعتها فى السبع الطوال [4] .

فانظر إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، كيف استشكل على عثمان رضى الله عنه أمرين : وضع الأنفال وهى قصيرة مع السور الطويلة ووضعها هى وبراءة فى أثناء السبع الطوال ، مفصولاً بهما بين السادسة والسابعة ، وانظر كيف أجاب عثمان رضى الله عنه أولاً بأنه لم يكن

---

(١) **المئين** : ما زادت آياتها على المائة أو قاربتها ، وهى ما وليت الطوال (الإتقان : ١/ ٢٢٠) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر ، وانظر : دلائل النبوة ، للبيهقى (٧/ ١٥٣) ، والمصاحف ، لابن أبى داود ٣١ - ٣٢ .

(٣) **قال الباقلانى** : إنما لم تكتب البسملة أول براءة ، لأن النبى صلىَّ الله عليه وسلم أراد أن يعلم من بعده أن كاتبى فواتح السور لم يكتبوها برأيهم وإنما اتبعوا ما سن وشرع ، وإلا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طريق الرأى ، وأيضًا فإن براءة نزلت بالسيف وبعض العهود ، وفى البسملة رأفة ورحمة وأمان ، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن : ٧٧ ، ٧٨) .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٥٧) ، وأبو داود فى الصلاة (١/ ٢٠٨) ، والترمذى فى التفسير (٨/ ٤٧٧ ، ٤٧٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٣٠) ، وانظر الدر المنثور (٢/ ٢٠٧) ، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ٤٤٣) وما بعدها ، والانتصار للقرآن ، للباقلانى (١/ ١٦٨) وما بعدها ، وهذا الحديث يدور إسناده فى جُلّ رواياته على يزيد الفارسى الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - فى تعليق عليه بالمسند : لا أصل له .

عنده فى ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهاد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها شبيهة بقصتها فى اشتمال كل منهما على [الأمر][1] القتال ، ونبذ العهود ، وهذا وجه بيِّن المناسبة جليّ ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراءهم ! وأعظم أحلامهم[2] !

وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضى الله عنه فى ذلك بأمور فتح الله بها :

الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسملة ، فقدمها لتكون كقطعة[3] منها ، وتكون براءة بخلوها منها كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، لا سورتان[4] .

الثانى : أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطوال ، فإنه ليس فى القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولاً منها[5] ، وذلك كاف فى المناسبة .

الثالث : أنه خلَّل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها فى العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قُبِضَ قبل أن يبين محلهما ، فوضعا [هنا][6] كالموضع المستعار بين السبع الطوال ، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) فى (ظ) : « أخلاقهم » .

(٣) فى المطبوعة : « لقطة » والمثبت من (ظ) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن أبى روق ، وابن أبى حاتم عن سفيان ، وابن أشتة عن ابن لهيعة (الإتقان : ١/ ٢٢٥) .

(٥) فى (ظ) : « وأنه ليس فى القرآن بعد الست السابقة سورة أطول منها » .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

بتوقيف ، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوهم[(١)] .

فانظر إلى هذه الدقيقة التى فتح الله بها ، ولا يغوص عليها إلا غواص .

الرابع : أنه لو أخرهما وقدم يونس ، وأتى بعد براءة بهود ، كما فى مصحف أُبى بن كعب ، لمراعاة مناسبة السبع الطوال ، وإيلاء بعضها بعضًا ، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد فى المناسبة ، فإن الأَوْلى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التى بعدها ، لما اشتركت فيه من الاشتمال على القصص ، ومن الافتتاح بـ ﴿ الٓرٰ ﴾[(٢)] ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مَكيّات ، ومن تناسب . ما عدا الحجر فى المقدار ، وبالتسمية باسم نبى ، والرعد اسم[(٣)] ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء .

فهذه ستة وجوه فى مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى آكد من ذلك الوجه الواحد[(٤)] فى تقديم يونس بعد الأعراف .

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها أقصر منها ، ولو أخرت براءة عن هذه السور الست [لبعدت][(٥)] المناسبة جدًّا لطولها بعد عدة[(٦)] سور أقصر منها بخلاف وضع سورة

---

(١) أى : وهم أن يكون وضعها بين السبع الطوال بتوقيف ، وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات ، وانظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ٤٤٣) .

(٢) **فى المطبوعة** : « بالذكر » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما (٨/ ١٤٥) أن اليهود قالوا للنبى صلَّى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الرعد ، فقال : « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ، وذكر السيوطى فى الإتقان (٤/ ٧٩) : أن ابن أبى حاتم أخرجه عن عكرمة ، وأن مجاهد سُئل عن الرعد فقال : ملك ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الرعد : ١٣) .

(٤) **فى المطبوعة** : « السابق » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) **فى المطبوعة** : « عشر » ، والمثبت من (ظ) .

النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة فى الطول .

ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات ﴿ الٓر ﴾ قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة فى[1] الافتتاح بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان[2] والسجدة ، لافتتاح كل بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها .

هذا ما فتح الله به .

وأما ابن مسعود فقدم فى مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراعى [السبع][3] الطوال ، وقدم الأطول فالأطول ، ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف ، وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور[4] .

ووجه مناسبتها لها : أن كلًّا منهما مدنية ، ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور : ٥٥) الآية . وفى الأنفال : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ ﴾ «٢٦» الآية . ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكَّر به فى الثانية ، فتأمَّل .

(١) **فى المطبوعة** : « مع » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) **فى المطبوعة** : « والقمر » خطأ ، والمثبت من (ظ) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) انظر : الإتقان (١/ ٢٢٤) نقلاً عن ابن أشتة فى المصاحف من رواية جرير بن عبد الحميد ، وانظر المصاحف ، لابن أبى داود (٣٥) .

سُورَةُ بَرَاءَة

أقول : قد عرف وجه مناسبتها ، ونزيد هنا أن صدرها [1] تفصيل لإجمال قوله فى الأنفال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (الأنفال : ٥٨) ، وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال : ٦٠) الآية . ولذا قال هنا فى قصة المنافقين : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ «٤٦» .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه فى الأنفال تولى قسمة الغنائم ، وجعل خُمسها خَمسة أخماس [2] ، وفى براءة تولى قسمة الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف [3] .

* * *

(١) صدر التوبة : ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إلى ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (التوبة : ٣ - ٥) .

(٢) وذلك قوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الأنفال : ٤١) الآية .

(٣) وذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ «٦٠» .

سُورَةُ يُونُسَ

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم فى الأنفال [١] ونزيد هنا : أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، فإنه [٢] سبحانه قال فيها : ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ «٢» فقدم الإنذار وعممه ، وأخر البشارة وخصصها ، وقال تعالى فى مطلع الأعراف : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٢) فخص الذكر وأخرها ، وقدم الإنذار ، وحذف مفعوله ليعُم .

وقال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ «٣» ، وقال فى أوائل الأعراف مثل ذلك [٣] .

وقال هنا : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ «٣» . وقال هناك : ﴿ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

وأيضًا فقد ذكرت قصة فرعون وقومه فى الأعراف ، واختصر ذكر [٤] إغراقهم ، وبسط [٥] فى هذه السورة أبلغ بسط [٦] .

فهى شارحة لما أُجمل فى سورة الأعراف منه .

---

(١) **جملة** : « فى الأنفال » ساقطة فى (ظ) .

(٢) **فى المطبوعة** : : « وإنه » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك فى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

(٤) **فى المطبوعة** : « فاختصر » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) **فى المطبوعة** : « عليهم وبسطه » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) فى عذاب فرعون قال تعالى فى الأعراف : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٣٦) ، وقال فى يونس : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ﴾ إلى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ «٩٠ - ٩٢» .

سُورَةُ هُودٍ

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جدًا ، مجملة[1] ، فشرحت فى هذه السورة وبسطت ما[2] لم يبسطه فى غيرها من السور[3] ، ولا فى سورة الأعراف على طولها ، ولا فى سورة ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا ﴾ (نوح : ١) التى أفردت لقصته .

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل فى سورة يونس [توفية بالقاعدة ، ثم إن مطلعها شديدًا الارتباط بمقطع سورة يونس][4] ، فإن قوله هناك : ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ (يونس : ١٠٩) هو عين قوله هنا : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ «٢» .

* * *

(١) وذلك من قوله : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ إلى ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ «٧١ - ٧٣» .

(٢) فى **المطبوعة** : «بما» ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك فى قوله : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ إلى ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ ﴾ «٢٥ - ٤٨» **وانظر** : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ١٦٤) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

سورة يوسف

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن قوله فى مطلعها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ «٣» مناسب لقوله فى مقطع تلك : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود : ١٢٠) .

وأيضًا فلما وقع فى سورة هود : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود : ٧١) وقوله : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (هود : ٧٣) . ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذى هو من أهل البيت مع إخوته فكان كالشرح لإجمال ذلك .

وكذلك قال هنا : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ «٦» فكان ذلك كالمقترن بقوله فى هود(١) : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (هود : ٧٣) .

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد فى ترتيب النزول : أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف(٢) ، وهذا وجه آخر من وجوه المناسبة فى ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها فى النزول هكذا .

* * *

(١) نظم الدرر (٤/٤) وما بعدها .
(٢) الإتقان (١/٩٧) نقلاً عن محمد بن الحارث بن أبيض فى جزئه .

سورة الرعد

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان : أنه سبحانه قال فى آخر تلك ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف : ١٠٥) فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصل[(١)] فى مطلع هذه السورة بقوله[(٢)] ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [﴾ تفصيل للآيات السمائية . وقوله : ﴿][(٣)] وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ «٢ - ٤» تفصيل للآيات[(٤)] الأرضية .

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، وافتتاح هذه بمثل ذلك[(٥)] ، وهو من تشابه الأطراف .

***

---

(١) فى (ظ) : «فسرها» .

(٢) **فى المطبوعة** : «فقوله» ، والمثبت من (ظ) وهو الأنسب .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : «الآيات» ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ختام يوسف : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) ، وافتتاح هذه : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ «١» .

سُورَةُ إبْرَاهِيم

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكارى فيه برهة : أن قوله فى مطلعها : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ «١» مناسب لقوله : فى مقطع تلك : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد : ٤٣) على أن المراد بـ (من) هو : الله تعالى جل جلاله .

وأيضًا ففى الرعد : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ (الرعد : ٣٢) ، وذلك مجمل فى أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ ، وقد فصلت الأربعة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . ﴾ «٩ - ١٦» الآيات[1] .

* * *

(١) المواضع الأربعة المفصلة لما أجمل فى سورة الرعد هى : الرسل ، فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ «٩» الآية ، ونظم الدرر (١١٧/٤) وما بعدها .
والمستهزئون ، وصفة الاستهزاء ، فى قوله : ﴿ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ «٩» وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ «١٠» ، وقوله : ﴿ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ «١٣» والأخذ فى قوله تعالى : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ «١٣ - ١٤» ونظم الدرر (١٦٥/٤ - ١٦٦) . .

سُورَةُ الحِجْرِ

أقول : تقدمت الأوجه فى اقترانها بالسورة السابقة ، وإنما أُخرت عنها لقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للمئين ، فناسب تقديم الأطول[1] ، مع مناسبة ما ختمت به لبراعة الختام وهو قول : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ «٩٩» ، فإنه مفسر بالموت[2] ، وذلك مقطع فى غاية البراعة .

وقد وقع ذلك فى أواخر السور المقترنة ، ففى آخر آل عمران : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) ، وفى آخر الطواسين : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص : ٨٨) ، وفى آخر ذوات (الٓر) : ﴿ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ (السجدة : ٣٠) وفى آخر الحواميم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

ثم ظهر لى وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى لما قال هناك فى وصف يوم القيامة : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (إبراهيم : ٤٨ - ٥٠) . قال هنا : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ «٢» فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم فى النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا منها تمنوا أن

---

(١) فى (ظ) تقدم الطولى » .

(٢) أخرجه البخارى عن سالم (٦/ ١٠٢) ، ونفس المعنى أخرجه البخارى فى الجنائز ، وأحمد فى المسند (٦/ ٤٣٦) .

لو كانوا فى الدنيا مسلمين ، وذلك وجه حسن فى الربط ، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به[1] ، وذلك من تشابه الأطراف[2] .

* * *

(١) ختام إبراهيم : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢) ، وافتتاح هذه : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ «١» ، فكأنهما متصلتان .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/٢٠٣ ، ٢٠٤) .

سُورَةُ ٱلنَّحۡلِ

أقول : وجه وضعها بعد سورة الحِجْر : أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه فإن قوله فى آخر تلك : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ (الحجر : ٩٩) . الذى هو مفسر بالموت ، ظاهر المناسبة لقوله هنا : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ «١» ، وانظر كيف جاء فى المقدَّمة بـ ﴿ يأتيك اليقين ﴾ [بلفظ المضارع][1] ، وفى المتأخرة بلفظ الماضى ، لأن المستقبل سابق على الماضى ، كما تقرر فى المعقول والعربية[2] .

ثم[3] ظهر لى أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم ، وإنما تأخرت[4] عنها لمناسبة الحجر ، فى كونها من ذوات ﴿ الٓر ﴾ .

وذلك : أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ، ومن هو مثبت[5] وغيره[6] ، وذلك أيضًا فى هذه بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ «٢٨» الآيات ، فذكر الفتنة ، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال ، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب[7] .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضى فى الكلام والأخبار ، لا فى الزمان ، فقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق فى الخبر ، ولا يجوز أن يُقال : قام الناس لرب العالمين يوم القيامة إلا بعد تمام ذلك البعث .

(٣) **فى المطبوعة** : « و » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) فى (ظ) : « أخرت » .

(٥) **فى المطبوعة** : « ميت » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) وذلك فى قوله : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (إبراهيم : ١٧) .

(٧) وذلك فى قوله تعالى عن العذاب : ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ ﴾ «٢٩» ، وفى النعيم : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ «٣١» .

ووقع فى سورة إبراهيم : ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ (إبراهيم : ٤٦) ، و[قد] [١] قيل : إنها فى الجبار الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور [٢] ، ووقع هنا أيضًا فى قوله : ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ «٢٦» .

ووقع فى سورة إبراهيم ذكر النعم ، وقال عقبها : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) ، ووقع هنا ذكر ذلك معقَّبًا بمثل ذلك .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) يروى أنه جوع نسرين ، وأوثق رجل كل منهما فى تابوت ، وقعد هو وآخر فى التابوت ورفع عصا عليها اللحم ، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا فى الجو . (تفسير الطبرى ٣/ ١٦٠) .

سُورَةُ بَنِى إِسْرَائِيل

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل [1] أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : « [هُنّ] [2] من العتاق الأول ، وهن من تلادى [3] » وهذا وجه فى ترتيبها ، وهو اشتراكها فى قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكلها [4] مشتملة على القصص .

وقد ظهر لى فى وجه اتصالها بسورة النحل : أنه سبحانه لما قال فى آخر النحل : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ (النحل : ١٢٤) فسَّر فى هذه [السورة] [5] شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « [إن] [6] التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل » [7] ، وذكر عصيانهم وإفسادهم [8] ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبى صلَّى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن [فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض ، فأُهلك ،

---

(١) فى (ظ) : « نزل » .

(٢) ما بين المعقوفين من صحيح البخارى ، وكذا فى (ظ) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (٦/ ١٨٩) عن ابن مسعود .

(٤) **فى المطبوعة** : « وكونها » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) تفسير ابن جرير (١٧/ ٢٤٣) .

(٨) **فى المطبوعة** : « وفسادهم » ، والمثبت من (ظ) .

وورثَ بنو إسرائيل من بعده ، وفى ذلك تعريض بهم ، أنهم كما استفزوا النبى] [1] صلَّى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، و [قد] [2] وقع ذلك أيضًا .

ولما كانت هذه السورة مصدَّرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أُسرِى بالمصطفى إليه ، تشريفًا له بحلول ركابه الشريف [3] ، فللَّه الحمد على ما ألهم .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، والنص فى المطبوعة فيه اضطراب .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) **وانظر** : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ٢٣٠ - ٢٣١) .

سُورَةُ الكَهۡفِ

قال بعضهم : مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وهذه بالتحميد[١] ، وهما مقترنان فى القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو : ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾[٢] (الحجر : ٩٨) وسبحان الله وبحمده .

قلت : مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضًا[٣] ، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف .

ثم ظهر لى وجه آخر أحسن[٤] فى الاتصال ، وذلك : أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبى صلَّى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القرنين[٥] ، وقد ذكر جواب السؤال الأول فى آخر سورة بنى إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التى اشتملت على جواب السؤالين الآخرين[٦] .

فإن قلت : هَلاَّ جمعت الثلاثة فى سورة واحدة ؟

---

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزملكانى هو : أن سورة الإسراء اشتملت على الإسراء الذى كذب به المشركون ، وكذبوا الرسول صلَّى الله عليه وسلم من أجله ، وتكذيبه تكذيب لله ، فأتى بسبحان تنزيهًا لله عما نسب إلى نبيه من الكذب ، وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحى ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد . (الإتقان : ٣/ ٣٨٧) .

(٢) أو : ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ كما ورد فى الحجر : ٩٨ ، وطه : ١٣٠ ، وغافر : ٥٥ ، و ق : ٣٩ ، والطور : ٤٨ ، وغير ذلك .

(٣) ختام الإسراء : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ ﴾ (الإسراء : ١١١) الآية .

(٤) فى (ظ) : « حسن » .

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٧) .

(٦) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ٢٣٠ - ٢٣١) .

قلت : لمَّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان (١) ، ناسب فصله فى سورة .

ثم ظهر لى وجه آخر : وهو أنه لما قال فيها : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥) ، والخطاب لليهود ، واستظهر على ذلك بقصة موسى فى بنى إسرائيل مع الخضر ، التى كان سببها ذكر العلم والأعلم (٢) ، وما دلت عليه من إحاطة (٣) معلومات الله عز وجل التى لا تحصى ، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم (٤) .

وقد ورد فى الحديث أنه لما نزل : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال اليهود : قد أوتينا التوراة ، فيها علم كل شىء فنزل : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ «١٠٩» فى هذه السورة (٥) فهذا وجه آخر فى المناسبة ، وتكون السورة من هذه الجهة جوابًا عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك .

وأيضًا فلما قال هنـاك : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (الإسراء : ١٠٤) شرح ذلك هنا وبسطه ، بقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ إلى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ «٩٨ - ١٠٠» فهذه وجوه عديدة فى الاتصال (٦) .

* * *

(١) لم يقع الجواب بالبيان ، وإنما وقع بإسناد علم الروح إلى الله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٢٥٥) وفيه (أوتينا علمًا كثيرًا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرًا كثيرًا) .

(٣) فى (ظ) : « كثرة » .

(٤) فى (ظ) : « فى تلك السورة » .

(٥) وفى رواية لابن جرير فى التفسير (١٥/ ١٠٤) فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧) الآية ، **وانظر** : أسباب النزول ، للنيسابورى (١٧٢) ، والسيوطى (١٧٩) .

(٦) نظم الدرر (٤/ ٤٤١) وما بعدها .

سُورَةُ مَرْيَم

أقول : ظهر لى فى وجه مناسبتها لما قبلها : أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب : قصة أصحاب الكهف ، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب ، وقصة موسى مع الخضر ، وما فيها من الخارقات ، وقصة ذى القرنين ، وهذه السورة فيها أعجوبتان : قصة ولادة يحيى بن زكريا (١) ، وقصة ولادة عيسى ، فناسب تتاليهما (٢) .

وأيضًا فقد قيل : إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة ، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل (٣) ، ففى ذكر سورة مريم بعد [ذكر] (٤) سورة أصحاب الكهف مع ذلك - إن ثبت - ما لا يخفى من المناسبة (٥) .

وقد قيل أيضًا : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت فى الفترة ، فناسب توالى [سورة] (٥) قصتهم و[سورة] (٥) قصة نبيهم (٦) .

* * *

---

(١) ولادة يحيى كانت عجيبة ، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس ، وأباه قد بلغ من الكبر عتيًا ، فلا ينجب مثلهما أبدًا .

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٤/٤٤٦) وما بعدها .

(٣) لم نعثر على هذا الرأى فيما بين أيدينا من مصادر .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) قال ابن كثير : الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية ، لأن اليهود أشاروا على قريش بسؤال النبى صلَّى الله عليه وسلم عنهم ، فدل على أنه محفوظ قبل عيسى . (تفسير ابن كثير : ٥/١٣٧) .

سُورَةُ طَـهَ

أقول : روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد فى ترتيب النزول : أن طه نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف ، وذلك وحده كاف فى مناسبة الوضع ، مع التآخى بالافتتاح (١) بالحروف المقطعة .

وظهر لى وجه آخر ، وهو : أنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدة من الأنبياء ، وهم : زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسوطة وإبراهيم ، وهى بين البسط والإيجاز ، وموسى ، وهى موجزة بجملة (٢) أشار إلى بقية النبيين فى الآية الأخيرة إجمالاً (٣) . وذكر فى هذه السورة شرح قصة موسى ، التى أجملها هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط (٤) ، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم ، الذى وقع [فى مريم] (٥) مجرد اسمه هناك (٦) ، ثم أورد فى سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر فى مريم ، كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وذى الكفل ، وذى النون ، وأشير إلى قصة من ذكرت قصته

---

(١) **كلمة** : « بالافتتاح » ليست فى (ظ) .

(٢) وردت قصة موسى فى ثلاث آيات قصار من مريم (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ ﴾ (مريم : ٥٨) الآية .

(٤) وذلك فى قوله : ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ إلى ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ «٩ - ٩٧» .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) وقع مجرد ذكر اسم آدم فى مريم فى قوله : ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ (مريم : ٥٨) ، وذكرت قصته مفصلة فى طه من قوله : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ إلى ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴾ «١١٦ - ١٢٣» .

إشارة وجيزة ، كموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وزكريا ، ومريم ، لتكون السورتان كالمتقابلتين .

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة[١] كما أنه فى سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ومع أبيه مبسوطًا[٢] .

فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب ، وبديع هذا الترتيب .

* * *

(١) قصة إبراهيم فى الأنبياء وردت فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ (الأنبياء : ٥١) الآية إلى ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٣) ، وكلها فى إبراهيم وقومه ، أما عن إبراهيم وأبيه فأشير إليها فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ (الأنبياء : ٥٢) الآية .

(٢) وردت قصة إبراهيم وأبيه فى مريم من قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ (مريم : ٤٢) إلى ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (مريم : ٤٨) .

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

قدمت ما فيها مستوفى[1] ، وظهر لي في اتصالها بآخر طه : أنه سبحانه لما قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾ (طه : ١٣٥) ، وقال قبله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه : ١٢٩) .

قال فى مطلع هذه : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ «١» إشارة إلى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر[2] .

وفيه أيضًا مناسبة لقوله هناك : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ (طه : ١٣١) الآية .

فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه[3] الحياة الدنيا ، لدنوها من الزوال والفناء ، ولهذا ورد فى الحديث : أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة : هلا سألت النبى صلَّى الله عليه وسلم عنها ؟ فقال : « نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا »[4] .

* * *

---

(١) أى فى سورة طه .

(٢) فى (ظ) : « المسمى » .

(٣) فى (ظ) « زهرة » .

(٤) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن عامر بن ربيعة (٢٥/ ٣٢٧) ، وأخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، كما ذكر السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٥/ ٦١٥) وفيه : عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ «١» عن أمر الدنيا ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٧٢ - ١٧٣) وكذلك الشوكانى فى فتح القدير (٣/ ٣٩٦) كلهم عن عامر بن ربيعة .

سُورَةُ الحَجِّ

أقول : وجه اتصالها بسورة الأنبياء : أنه ختمها بوصف الساعة فى قوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (الأنبياء : ٩٧) ، وافتتح هذه بذلك ، فقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ «١ ، ٢» .

سُورَةُ المؤْمِنُونَ (١)

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج : أنه لما ختمها بقوله : ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج : ٧٧) ، وكان ذلك مجملًا ، فصَّله فى فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التى من فعلها فقد أفلح ، فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ «١ ، ٢» الآيات .

ولما ذكر [فى] (٢) أول الحج قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ (الحج : ٥) الآية . زاده هنا بيانًا [وإطنابًا] (٣) فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ «١٢ ، ١٣» الآيتان . فكل جملة أوجِزَت هناك فى القصة (٤) أطنب فيها هنا .

---

(١) فى (ظ) : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

(٢) ، (٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) فى **المطبوعة** : « القصد » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

سورة النور

أقول : وجه اتصالها بسورة قد أفلح : أنه لما قال [فيها][1] : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ (المؤمنون : ٥) ، ذكر فى هذه أحكام من لم يحفظ فرجه ، من الزانية والزانى ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر[2] ، وأمر فيها بالنكاح حفظًا للفروج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، وحفظ فَرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا[3] .

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبدع من هذا النسق .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) الزانية والزانى فى قوله : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٍ ﴾ إلى ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ «٢ ، ٣» ، وجاء القذف فى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ «٤ - ١٠» وهو شامل لأحكام اللعان وقصة الإفك هى التى أرجف بها المنافقون فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حتى برأها الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ ﴾ إلى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ «١١ - ١٨» وجاء غض البصر فى قوله : ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ «٣٠ ، ٣١» ، وفى (ظ) بعد كلمة : « البصر » ما يلى : « الذى هو داعية الزنا ، والاستئذان الذى إنما جعل من أجل النظر .

(٣) جاء الأمر بالنكاح ، والاستعفاف لغير القادر ، وعدم إكراه الفتيات على البغاء فى الآيتين (٣٢ ، ٣٣) .

سُورَةُ الفُرقَانِ

ظهر لى بفضل الله بعدما أفكرت مدة(١) : أن نسبة هذه السورة لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة .

من حيث أن النور قد ختمت بقوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ (النور : ٦٤) كماختمت المائدة بقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ ﴾ (المائدة : ١٢٠) .

وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة فى سورة الفرقان فافتتحت بقوله : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ «٢» ، كما افتتحت الأنعام بمثل(٢) ذلك(٣) . وكان قوله عقبه : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ «٣» إلى آخره ، نظير قوله هناك : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام : ١) .

ثم ذكر فى خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمدّ الظل ، والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسى ومرْج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصِّهر ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي

(١) فى **المطبوعة** : « فكرت فى هذه » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) فى (ظ) : « بنظير » .

(٣) افتتاح الأنعام قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ (الأنعام : ١) الآية .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] (النور : ٦٤) كما فصل آخر المائدة فى الأنعام بمثل ذلك [2] وكان البسط فى الأنعام أكثر لطولها .

ثم أشار فى هذه السورة إلى القرون المكذبة وإهلاكهم [3] كما أشار فى الأنعام إلى ذلك [4] ، ثم أوضح [5] هذه الإشارة فى السورة التى تليها وهى الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ [6] ، كما أوضح تلك الإشارة التى فى الأنعام وفصَّلها فى سورة الأعراف التى تليها [7] .

فكانت هاتان السورتان فى المثانى ، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] فى الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائدة ، المشتملة على فصل القضاء [8] .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهى : أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائدة ،

---

(١) جميع هذه المعانى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ «٤٥ - ٦١» .

(٢) هذا التفصيل جاء فى الأنعام مفرقًا فى الآيات : (١٣ ، ١٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) .

(٣) فى **المطبوعة** : « وإهلاكم » خطأ .

(٤) تفصيل أحوال القرون المكذبة وإهلاكهم فى الفرقان فى قوله : ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ ﴾ إلى ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ « ٣٦ - ٣٩» ، وفى الأنعام فى قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام : ١١) .

(٥) فى **المطبوعة** : « أفصح عن » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) جاء ذلك فى الآيات : «٦٤ - ١٨٩» حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم إياه ، ووسيلة إهلاكهم .

(٧) تفصيل أحوال القرون المكذبة جاء فى الأعراف من قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ إلى ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٩ - ١٧٨) .

(٨) آخر المائدة : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ «١٢٠» وهو يشتمل على فصل القضاء ضمنًا ، وأول الأنعام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (الأنعام : ١) الآية .

والإسراء بعد النحل وهذه بعد النور ، وسبأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم[1] ، لما فى ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال ، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع .

* * *

(١) قول المؤلف : والإسراء بعد النحل ، لا يتفق مع قاعدته ، فكلاهما مكى ، وقوله : والحديد بعد الواقعة عكس قاعدته ، فالواقعة مكية ، والحديد مدنية ، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن ، كيونس بعد التوبة ، وإبراهيم بعد الرعد ، والنمل بعد الشعراء ، وق بعد الرحمن ، والثناء على القرآن ثناء على الله ضمنًا .
وهناك مكيات بعد مدنيات لم تفتتح بالثناء على الله ، كالواقعة بعد الرحمن .

سورة الشعراء

أقول : وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان : ٣٥ – ٣٨) شرح هذه القصص ، وفصَّلها أبلغ تفصيل فى السورة[١] التى تليها ، ولذلك رتبت على ترتيب ذكرها فى الآيات المذكورة فبدىء بقصة موسى[٢] ، ولو رتبت على الواقع لأخرت كما فى الأعراف .

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذى مَنَّ الله بإلهامه .

ولما كان فى الآيات المذكورة إشارة إلى قرون بين ذلك كثيرة[٣] ، زاد فى الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم ، ، وقوم لوط ، وقوم شعيب[٤] .

ولما ختم الفرقان بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ (الفرقان : ٦٣) ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان : ٧٢)

---

(١) **فى المطبوعة** : « الشعراء » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) بدىء بقصة موسى ، من قوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ « ١٠ » وما بعدها ، ثم نوح فى قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾« ١٠٥ » وما بعدها ، ثم عاد من قوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ « ١٢٣ » وهكذا على ترتيب آيات الفرقان .

(٣) **فى المطبوعة** : « قوله وقرونًا بين ذلك كثيرًا » والمثبت من (ظ) .

(٤) **فى (ظ)** : « وقوم شعيب وقوم لوط » .

ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، و[ما][1] يدخل فى القول[2] (سلامًا) ، وما يذم منه ، ويدخل فى اللغو[3] .

* * *

(١) مابين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) فى **المطبوعة** : « قوله » والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك من قوله : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ إلى آخر السورة (٢٢٧) من الشعراء .

سورة النمل

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنها كالتتمة لها ، فى ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هى فى[1] الشعراء[2] .

وقد روينا عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، فى ترتيب [نزول][3] السور : أن الشعراء نزلت ثم طس[4] ، ثم القصص وذلك كافٍ فى[5] ترتيبها فى المصحف هكذا .

وأيضًا فقد وقع فيها : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ «٧» إلى آخره ، وذلك تفصيل قوله فى الشعراء ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١) .

* * *

(١) فى (ظ) : « كما هو » .

(٢) قصة داود وسليمان فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾ إلى ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ « ١٥ - ٤٤ » ، وقصة لوط فى قوله : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ إلى ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ « ٥٤ - ٥٨ » .

وقول المؤلف : إن قصة لوط هنا أبسط منها فى الشعراء مخالف للواقع ، فهى فى الشعراء أطول ، ولكنها ذكرت فى النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقى والانتكاس العقلى ، إذ عدوا طهارة لوط من الشذوذ الجنسى جريمة يستحق عليها النفى من البلاد ، ولم يرد هذا التعليل فى الشعراء ، فلعل البسط فى المعانى لا فى المقدار .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : « أنزلت ، ثم طه » خطأ ، والمثبت من (ظ) .

(٥) **فى المطبوعة** : « ولذلك كان » والمثبت من (ظ) .

سُورَةُ الْقَصَصِ

أقول : ظهر لى بعد الفكرة : أنه سبحانه لما حكى فى الشعراء قول فرعون لموسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ (الشعراء : ١٨ ، ١٩) إلى قول موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١) ثم حكى [١] فى طس النمل قول موسى لأهله : ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ (النمل : ٧) إلى آخره ، الذى هو فى الوقوع بعد الفرار ، ولما كان [الأمران] [٢] على سبيل الإشارة والإجمال ، بسط فى هذه السورة ما أوجزه فى السورتين ، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما .

فبدأ بشرح تربية فرعون له ، مصدرًا بسبب ذلك : من علو فرعون ، وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته فى اليم خوفًا عليه من الذبح ، وبسط القصة فى تربيته ، وما وقع فيها إلى كبره ، إلى السبب الذى من أجله قتل القبطى ، وهى الفعلة التى فعل ، إلى الهم بذلك عليه ، والموجب لفراره إلى مدين [٣] ، إلى ما وقع له [فيها] [٤] مع شعيب ، وتزوجه بابنته ، إلى أن سار بأهله ، وآنس من جانب الطور نارًا فقال لأهله : ﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ «٢٩» إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه ، وبعثه إياه رسولاً ، وما استتبع ذلك ، إلى آخر القصة .

---

(١) فى **المطبوعة** : « وقال » والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) **مدين** : مدينة قوم شعيب ، وهى تجاه تبوك ، على بحر القلزم ، وبها البئر التى استقى منها موسى (عليه السلام) لغنم شعيب . **انظر** : (مراصد الاطلاع ٣/١٢٤٦) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

فكانت السورة شارحة لما أجمل فى السورتين معًا ، على الترتيب [١] .

وبذلك عرف وجه الحكمة فى تقديم (طس) على هذه ، وتأخيرها عن الشعراء ، فلله الحمد على ما ألهم .

سُورَةُ العَنكبُوتِ

أقول : ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر فى أول السورة السابقة عن فرعون أنه : ﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ (القصص : ٤) افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان ، بعذاب دون ما عذب به قوم فرعون بنى إسرائيل ، تسلية لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثًا لهم على الصبر ، ولذلك قال هنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ «٣» ، وهذه أيضًا من حكم تأخير القصص عن [٢] (طس) .

وأيضًا : فلما كان فى خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبى صلىَّ الله عليه وسلم [٣] ، وفى خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ ﴾ «٥٦» ناسب تتاليهما .

* * *

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٦٢) وما بعدها .

(٢) **فى المطبوعة** : « على » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصص : ٨٥) الآية ، والمعنى : لرادك إلى مكة ، كما فى البخارى (٦/ ١٤٢) أى : كما خرجت منها ، وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير والضحاك ، واختاره ابن جرير (تفسير الطبرى : ٢٠/ ٨٠) .

سُورَةُ الرُّومِ

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها : أنها ختمت بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ، وافتتحت[(١)] هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة[(٢)] .

هذا مع تآخيها بما قبلها فى المطلع ، فإن كلاًّ منهما افتتح بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة فى المفتتح[(٣)] بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقبت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة بينتها فى « أسرار التنزيل »[(٤)] .

---

(١) فى **المطبوعة** : « فافتتحت » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ «٢ ، ٣» ، إلى قوله : ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ «٤ ، ٥» ، وانظر : نظم الدرر (٦/ ٥٨٢) وما بعدها .

(٣) فى **المطبوعة** : « بالمفتتح » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) انظر مقدمة المصنف وحاشيتها ، وأشار إليه فى الإتقان (١/ ٢٨١ ، ٣/ ٣٦٩) .

والذى نراه فى سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله أعلم : أنه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطعة وأنه من عند الله ، وهدى للمتقين ، وتنزيل من رب العالمين ، كان لابد من ابتلاء المصدقين به حتى ينعزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق فى إيمانه من الكاذب ، وهذا بمثابة الاختبار العملى لاستجابة الناس لأمر الكتاب ، ولا سيما وأن حملة تشكيك أثارها الكفار ضد الإيمان ، ولذا قال تعالى فى العنكبوت : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ ﴾ (العنكبوت : ١٠ - ١٢) الآية .

أما فى الروم فقد عقبت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذى صدق الكتاب بالإخبار عن المستقبل وما يجرى فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة ، وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه ، ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل . =

سُورَةُ لُقْمَان

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ أن قوله تعالى هنا : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ «٣ ، ٤» متعلق بقوله فى آخر سورة الروم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ (الروم : ٥٦) الآية ، فهذا عين إيقانهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر[1] .

وأيضًا ففى كلتا السورتين جملة من الآيات[2] وبدء الخلق[3] .

وذكر فى الروم : ﴿ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (الروم : ١٥) ، وقد فسر

= ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٦) .

أما سورة القلم فكانت ثالثة السور نزولاً بمكة ، وكان الكفار قد أرجفوا بأن الرسول صلىَّ الله عليه وسلم مجنون ، أو به مس من الجن ، فاقتضى الأمر تسليته وتثبت فؤاده ، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذى جاء عقب ذلك فى الآيات ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ إلى ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القلم : ١٠ - ١٥) .

(١) نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور (٦/٣) وما بعدها .

(٢) فى **المطبوعة** : «الأديان» تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) ذكرت جملة الأديان فى سورة الروم فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم : ٩، ١٠) وقوله : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ (الروم : ٣٢) ، وبدء الخلق فى قوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (الروم : ٢٠) الآية ، وما بعدها .
وذكرت جملة الأديان فى لقمان فى قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (لقمان : ٦) الآية ، وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان : ٢٠) وما بعدها ، وبدء الخلق فى قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (لقمان : ١٠) ، وقوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان : ٢٨) الآية .

بالسماع [١] ، وفى لقمان : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِى لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ «٦» وقد فسر بالغناء ، وآلات الملاهى [٢] .

سُورَةُ ٱلسَّجۡدَةِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها ، أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة [٣] التى ذكرت فى خاتمة لقمان .

فقوله هنا : ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ «٥» ، شرح لقوله هناك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان : ٣٤) ولذلك عقب هنا بقوله : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ «٦» .

وقوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ ﴾ «٢٧» شرح قوله [٤] : ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ «٧» الآيات ، شرح لقوله : ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (السجدة : ٥) و ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾ (السجدة : ١٣) ، شرح لقوله : ﴿ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدًا ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

---

(١) هو قول يحيى بن أبى كثير ، انظر : (تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٣) .
(٢) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكرى (تفسير الطبرى ٢١/ ٣٩) ، وهو قول ابن عباس وجابر رضى الله عنهم ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، والحسن ، **وانظر** : (صحيح الترمذى : ٤/ ٥٠٢ ، ٥٠٣ بتحفة الأحوذى) .
(٣) نظم الدرر (٦/ ٤٢ - ٤٣) .
(٤) **فى المطبوعة** : « لقوله » ، والمثبت من (ظ) .

﴿ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ «١٠ ، ١١» شرح لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان : ٣٤) ، فلله الحمد على ما ألهم .

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه ، ومقطع تلك ، فإن تلك ختمت بأمر النبى صلّى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم[(١)] ، [ومطلع هذه الأمر بتقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فصارت كالتتمة لما ختمت به تلك ، حتى كأنهما سورة واحدة][(٢)] .

سُورَةُ سَبَأ

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها ، وهو أن تلك لما ختمت بقوله : ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (الأحزاب : ٧٣) افتتحت هذه بأن له ما فى السموات وما فى الأرض[(٣)] ، وهذا الوصف لائق بذلك الحكم ، فإن الملك العام ، والقدرة التامة ، يقتضيان ذلك .

وخاتمة سورة[(٤)] الأحزاب : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب : ٧٣) وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ «٢» .

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ (السجدة : ٣٠) .
(٢) فى (ظ) : «وهذه بدأت بأمره بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى إليه ، والتوكل عليه» .
(٣) وذلك قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (سبأ : ١) الآية .
(٤) فى (ظ) : «وآخر» .

سُورَةُ فَاطِر

أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ ، تآخيهما فى الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما فى المقدار .

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها ، من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ (سبأ : ٥٤) ، كما قال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٤٥) ، فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة[1] .

* * *

(١) آخر المائدة : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (المائدة : ١١٩) ، وأول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام : ١) الآية .

سُورَةُ يس

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذكر فى سورة فاطر قوله : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (فاطر : ٣٧) وقوله : ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ ﴾ (فاطر : ٤٢) ، والمراد به محمد صلَّى الله عليه وسلم [١] وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قومًا ما أنذر آباؤهم ، وهذا وجه بيّن .

وفى فاطر : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ (فاطر : ١٣) ، وفى يس : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ «٣٨ ، ٣٩» ، وذلك أبسط وأوضح .

وفى فاطر : ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ (فاطر : ١٢) ، وفى يس : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴾ (يس : ٤١ - ٤٣) فزاد القصة بسطًا .

* * *

---

(١) هو قول السدى وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، **انظر** : تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٢) .

سُورَةُ الصَّافَاتِ

أقول : هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، فى تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم [١] ، كما أن تينك [٢] السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم .

سُورَةُ ص

أقول : هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، فى كونها متممة لها بذكر من بقى من الأنبياء ، ممن لم يذكروا فيها ، فإنه سبحانه ذكر فى الصافات : نوحًا ، وإبراهيم ، والذبيح ، وموسى ، وهارون ، ولوطًا ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا : داود ، وسليمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهى بعدها أشبه شىء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء [٣] .

* * *

(١) وردت الإشارة إلى القرون المكذبة ، وإهلاكهم فى يس بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس : ٣١) وجاء ذلك مفصلاً فى الصافات فى قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات : ١٢) إلى آخر السورة .

(٢) فى **المطبوعة** : « يتنك » تحريف .

(٣) نظم الدرر (٦/ ٣٥٦) .

سُورَةُ الزُّمَر

[**أقول**][1] : لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال فى (ص) : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (ص : ٨٧) ، ثم قال هنا : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ «١» فكأنه **قيل** : هذا الذكر تنزيل ، وهذا تلاؤم[2] شديد ، بحيث إنه لو أسقطت[3] البسملة لالتأمت الآيتان[4] كالآية الواحدة .

وقد ذكر الله تعالى فى آخر (ص) قصة خلق آدم[5] ، وذكر فى صدر هذه قصة خلق زوجه [منه][6] ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة[7] وقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ «٧٥» .

فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلاً بخلق آدم المذكور فى السورة التى قبلها .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) فى (ظ) : « تلاحم » .   (٣) فى (ظ) : « سقطت » .

(٤) فى (ظ) : « لالتأم الكلام » .

(٥) خلق آدم فى سورة (ص) قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ إلى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص : ٧١ - ٨٥) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) بدأ ذكر هذه الموضوعات فى الزمر فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٦) الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (٣٠) ، وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (٤٢) الآية ، وقوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (٧١) الآيات ، إلى آخر السورة ، ولذلك لو قدمت الزمر على (ص) لاختل النسق القرآنى الذى أحكمه الله تعالى .

سُورَةُ غَافِر

أقول : وجه إيلاء الحواميم السبع [(١)] سورة الزمر : تآخى المطالع فى الافتتاح بتنزيل الكتاب ، وفى مصحف أُبىّ بن كعب : أول الزمر ﴿ حمٓ ﴾ [(٢)] ، وذلك مناسبة جليلة [(٣)] .

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها فى الافتتاح بـ ﴿ حمٓ ﴾ ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد فى الحديث أنها نزلت جملة [(٤)] [واحدة] [(٥)] .

وفيها شبه من ترتيب ذوات ﴿ الٓرۚ ﴾ الست [(٦)] .

فانظر ثانية الحواميم وهى فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات ﴿ الٓرۚ ﴾ هود فى تغيير الأسلوب فى وصف الكتاب ، وأن فى هود : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ (هود : ١) ، وفى فصلت : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ (فصلت : ٣) ، وفى سائر ذوات ﴿ الٓرۚ ﴾ [(٧)] ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ

---

(١) الحواميم السبع هى : غافر ، وفصلت ،والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ،

(٢) الإتقان : (١/ ٢٢٢) نقلاً عن أبى أشتة فى المصاحف وفى الأصل : أن الزمر أولها حم فى مصحف ابن مسعود وأثبتنا ما فى الاتقان ، والبرهان للزركشى : (١/ ١٣٠) .

(٣) لم نعثر على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطى فى الإتقان ولا الزركشى فى البرهان ، ولا مصادر السنة الستة ، ولا مجمع الزوائد .

(٤) فى (ظ) جلية .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) ذوات ﴿ الٓرۚ ﴾ الست هى : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وأولها : ﴿ الٓمٓرۚ ﴾ ، وإبراهيم ، والحجر .

(٧) فى (ظ) : « الراءات » ، وكلاهما سائغ .

﴿ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[1] (الحجر : ١) ، وفى سائر الحواميم : ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ (غافر : ٢) أو ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾[2] (الدخان : ٢) .

وروينا عن جابر بن زيد ، وابن عباس فى ترتيب نزول السور : أن الحواميم نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها فى المصحف : المؤمن ، ثم السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ولم يتخللها نزول غيرها[3] ، وذلك[4] مناسبة جلية واضحة فى وضعها هكذا .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهى : أنه فى كل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة . فهذه [السور][5] السبع مصدرة بـ ﴿ حمٓ ﴾ ، وسبع فى الربع الذى قبله [متواليه و][6] ذوات ﴿ الٓرۚ ﴾[7] الست متوالية ، و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ الأعراف ، فإنها متصلة بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه ، وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ، وأول النصف الثانى بسورتين[8] .

وقال الكرمانى فى « العجائب »[9] : ترتيب الحواميم السبع لما بينها

---

(١) ولكن فى إبراهيم : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ (١) .

(٢) ولكن فى فصلت : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (٢) ، وفى الشورى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ﴾ (٣) .

(٣) الإتقان (١/ ٩٧) نقلاً عن أبى بكر محمد بن الحارث بن أبيض فى جزئه المشهور .

(٤) **فى المطبوعة** : « وتلك » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ، (٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) **فى** (**ظ**) : « الراءات » .

(٨) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات فى سورة الشعراء الإتقان (١/ ٢٤٣) وعليه يكون نصف القرآن مفتتحاً بالشعراء وأولها (طسم) ، والنمل (طس) ، والقصص (طسم) ، والعنكبوت (الٓمٓ) ، والروم (الٓمٓ) ، ولقمان (الٓمٓ) ، والسجدة (الٓمٓ) ، وإذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما : مريم وطه .

(٩) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (خط) ، ولم نعثر عليه مخطوطًا ولا مطبوعًا ، **انظر** : (معجم الأدباء ١٩/ ١٢٥) ، وقد ذكره الكرمانى فى (أسرار التكرار فى القرآن ص ١٨) .

من التشاكل الذى خصت به ، وهو : أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه ، مع تفاوت المقادير فى الطول والقصر ، وتشاكل الكلام فى النظام . انتهى .

قلت : وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التى هى ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التى هى ثانية ذوات ﴿ الٓر ﴾[١] ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف[٢] .

سُورَةُ القِتَالِ

[أقول][٣] لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله فى آخر الأحقاف ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) ، واتصاله وتلاحمه وبحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلًا اتصالاً واحدًا لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذًا بعضه بعنق بعض[٤] .

* * *

(١) فى (ظ) : « الراءات » .

(٢) مطلع الزمر ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، ومطلع غافر ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ، ومطلع هود ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ ، ومطلع فصلت ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ، وهكذا جميع المطالع التى ذكرها المؤلف .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) أول القتال : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (محمد : ١) ، وسورة القتال مع هذا متممة لموضوع سورة الأحقاف قبلها : فالأحقاف فيها الحديث عن إعراض الكافرين فى مختلف العصور ، وفيها دعوتهم إلى الإيمان بالتى هى أحسن ، وقد استنفذت السورة وسائل الإقناع العقلى ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم ، فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تمامًا مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

سورة الفتح

[أقول][1] لا يخفى وجه حُسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال ، وقد ورد فى الحديث : أنها [نزلت][1] مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إبهامه فى قول تعالى فى الأحقاف : ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ ﴾[2] (الأحقاف : ٩) ، فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة[3] .

سورة الحجرات

[أقول][4] لا يخفى تآخى هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلهما ، لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام ، فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة[5] ، وتلك خُتمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا[6] ، وتلك تضمنت تشريفًا له صلَّى الله عليه وسلم ،

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) هو قول ابن عباس رضى الله عنهما رواه عنه على بن طلحة ، ولذا قال عكرمة والحسن وقتادة : إن آية الأحقاف منسوخة بآية الفتح : ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ (الفتح : ٢) الآية ، قالوا : ولما نزلت قال رجل من المسلمين : فما هو فاعل بنا ؟ فنزل : ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ ﴾ (الفتح : ٥) الآية ، **انظر** : تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٠) .

(٣) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، للبقاعى (٢/ ٤٩٢) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) قتال الكفار فى الفتح معروف ؛ لأنها فى فتح مكة ، وقتال البغاة فى الحجرات جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٩) الآية .

(٦) ختام الفتح : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (الفتح : ٢٩) وافتتاح الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ (الحجرات : ١) الآية .

خصوصًا مطلعها ، وهذه أيضًا فى مطلعها أنواع من التشريف له صلىَّ الله عليه وسلم [1] .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

أقول : لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة ، والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق [2] ، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع .

ونظير ذلك : افتتاح المرسلات بذلك ، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء فى سورة الإنسان [3] .

سُورَةُ الطُّورِ

أقول : وجه وضعها بعد الذاريات : تشابههما فى المطلع والمقطع ، فإن فى مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ ﴾ (الذاريات : ١٥ ، الطور : ١٧) الآيات ، وفى مقطع كل منهما صفة حال

---

(١) تشريفه صلىَّ الله عليه وسلم فى الفتح فى قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ (الفتح : ٢) الآية ، وتشريفه فى مطلع الحجرات : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحجرات : ١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٣) الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات : ٤) **وانظر** : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ٥ ، ٦) .

(٢) فى (ظ) : « ما توعدون من ذلك صادق » .

(٣) الوعد والوعيد فى الإنسان ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا ﴾ (الإنسان : ٤) وما بعدها ، وأقسم على صحة ذلك فى أول المرسلات ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (المرسلات : ٧) .

الكفار ، بقوله فى تلك : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الذاريات : ٦٠) ، وفى هذه : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ «٤٢»[(١)] .

سُورَةُ النَّجْمِ

أقول : وجه وضعها بعد الطور : أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت بقوله : ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الطور : ٤٩) ، وافتتحت هذه بقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ «١» .

ووجه آخر : [وهو][(٢)] أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لآبائهم[(٣)] ، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود[(٤)] فى قوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ [وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ «٣٢» الآية ، فقد أخرج ابن أبى حاتم ، وابن المنذر ، والواحدى بأسانيدهم عن ثابت ابن الحارث الأنصارى ، **قال** : كانت اليهود تقول : إذا هلك صبى صغير هو : صدِّيقٌ ، فبلغ ذلك النبى صلَّى الله عليه وسلم ، فقال : « كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد » ، وأنزل الله عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية][(٥)] .

---

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى ذكر تكذيب الكافرين ، ورد عليهم فى إيجاز فى الذاريات بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات : ٥٢) وما بعدها ، ثم فصل ذلك فى الطور من قوله : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور : ٢٩) إلى آخر السورة (٤٩) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الطور : ٢١) .

(٤) بل فيها ذكر لذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم فريقين : فريقًا للجنة ، وفريقًا للسعير . **انظر** : (تفسير ابن كثير : ٧/ ٤٣٧) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وانظر الدر المنثور ، للسيوطى (٦/ ١٢٨) ، وزاد السيوطى بقوله : « وأخرجه الطبرانى » ، وانظر أيضًا : أسباب النزول ، للسيوطى وفيه هذا النص (٢٥٨) وكذا أسباب النزول للنيسابورى (٢٢٦) وذكره .

ولما قال هناك فى المؤمنين : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ (الطور : ٢١) أى : ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين ، مع نفعهم بما عمل آباؤهم ، قال هنا فى صفة الكفار أو بنى الكفار : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ «٣٩» خلاف ما ذكر فى المؤمنين الصغار .

وهذا وجه بيّن بديع فى المناسبة ، من وادى التضاد .

سُورَةُ ٱلْقَمَرِ [١]

أقول : لا يخفى ما فى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق [والتناسب] [٢] فى التسمية ، لما بين النجم والقمر من الملابسة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحى ، وقبلها سورة الفجر [٣] .

ووجه آخر وهو : أن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام [وكالشعراء بعد الفرقان] [٤] ، وكالصافات بعد يس ، فى أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم فى قوله هناك : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ (النجم : ٥٠ - ٥٣) [٥] .

* * *

(١) فى (ظ) : « اقتربت » .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٣) وانظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : (٣/ ٣٩) .
(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٥) جاء تفصيل ذلك على الترتيب ، وزاد عليه فى سورة القمر ، من قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر : ٩ ، ٤٢) .

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

أقول : لما قال سبحانه وتعالى فى آخر القمر : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر : ٤٦) ، ثم وصف حال المجرمين فى سقر ، وحال المتقين فى جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد فى الإجمال .

فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إذهابها (١) ، ثم وصف النار وأهلها (٢) ، والجنة وأهلها (٣) ، ولذا قال [﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ «٤١» فلم يقل : الكافرون أو نحوه لاتصاله بقوله هناك : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القمر: ٤٧) ثم وصف الجنة وأهلها ، وكذا قال :] (٤) فيهم : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ «٤٦» ، وذلك هو عين التقوى (٥) ، ولم يقل : [و] (٦) لمن آمن وأطاع ، أو نحوه ، لتتوافق الألفاظ فى التفصيل والمفصل .

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التى قبلها فلله الحمد على ما ألهم وفهَّم (٧) .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : : « إدهائها » ، تحريف ، والمثبت من (ظ) .
(٢) وصف النار وأهلها جاء فى قوله فى سورة الرحمن ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ إلى ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ (الرحمن : ٣١ ، ٤٤) .
(٣) ووصف الجنة وأهلها جاء فى قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن : ٤٦) إلى آخر السورة .
(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٥) التقوى هى : خوف مقام الرب ، وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الإجمال فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ فى سورة القمر : ٥٤ .
(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٧) نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور (٧/ ٣٧١) ، ومصاعد النظر (٣/ ٤٥) .

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

أقول : هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن فى أن كلًّا منهما فى وصف القيامة ، والجنة والنار ، وانظر إلى اتصال قوله هنا : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ «١» بقوله هناك : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ (الرحمن : ٣٧) ، ولهذا اقتصر فى الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى الواقعة على ذكر رجّ الأرض[(١)] ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة .

ولهذا عكس فى الترتيب ، فذكر فى أول هذه السورة ما ذكره فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك ، كما أشرت إليه فى سورة آل عمران مع سورة البقرة .

فافتتح [فى سورة][(٢)] الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجان من مارج من نار[(٣)] ، ثم صفة [يوم][(٤)] القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة .

وابتدأ هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم [ذكر][(٥)] النجوم ، ولم يذكرها فى الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن .

فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك ، وكَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ .

* * *

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ (الواقعة : ٤) ، وانظر : نظم الدرر (٧/ ٤٠٢) .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٣) فى (ظ) : « من نار » .
(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

سُورَةُ الحَدِيدِ

قال بعضهم : وجه اتصالها بالواقعة : أنها بدأت[1] بذكر التسبيح ، وتلك ختمت بالأمر به[2] .

قلت : وتمامه : أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه **قيل** : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٩٦) لأنه ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ «١» .

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

أقول : لما كان فى مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، **وقال** : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ الحديد «٤» افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه صلَّى الله عليه وسلم ، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها حين نزلت : « سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، إنى لفى ناحية البيت لا أعرف ما تقول »[3] .

وذكر بعد ذلك قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ «٧» ، وهو تفصيل لإجمال قوله :[4]

(١) **فى المطبوعة** : « قدمت » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٣٣) ، وفيه تلك العبارة .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة (١/ ٦٧) والإمام أحمد فى المسند (٦/ ٤٦) ، وأخرجه البخارى بنحوه معلقًا (٩/ ١٤٤) ، وانظر التفسير الصحيح (٤/ ٤٥٣) وابن جرير فى التفسير (٢٨/ ٥ ، ٦) .

(٤) **فى المطبوعة** : « لقوله » ، والمثبت من (ظ) .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ [وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][1] ﴾ (الحديد : ٤) .

وبذلك تعرف الحكمة فى الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تآخيهما فى الافتتاح بـ ﴿سَبَّحَ ﴾[2] .

سُورَةُ ٱلْحَشْرِ

[**أقول** :][3] آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر[4] ، وأول الحشر نازل[5] فى غزوة بنى النضير[6] ، وهى عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط[7] .

وفى آخر تلك : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ (المجادلة : ٢١) ، وفى أول هذه : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ «٢» .

وفى آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله[8] ، وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله[9] .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٧٤ - ٤٧٥) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ).

(٤) وهو قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ (المجادلة : ٢٢) ، **وقيل** : هم : أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وأبو بكر هَمَّ بقتل ولده عبد الرحمن ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيدًا ، وعمر قتل قريبًا له ، وحمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد : ٣/ ١/ ٣٠٠) .

(٥) فى (ظ) : « أنزل » .

(٦) وذلك قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾ (الحشر : ٢) وأخرج البخارى فى التفسير (٦/ ١٨٣) ، ومسلم فى التفسير (٨/ ٢٤٥) عن ابن عباس رضى الله عنهما أو أول الحشر أنزلت فى بنى النضير .

(٧) نظم الدرر (٧/ ٥٠٩) .

(٨) وذلك قوله : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (المجادلة : ٢٢) الآية .

(٩) وذلك قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ ﴾ (الحشر : ٤) الآية .

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

أقول : لما كانت سورة الحشر فى المعاهَدين من أهل الكتاب ، عقبت بهذه ، لاشتمالها على ذكر المعاهَدين من المشركين ، لأنها نزلت فى صلح الحديبية [1] .

ولما ذكر فى الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضًا ثم موالاة الذين [نافقوا الكفار] [2] من أهل الكتاب ، افتتح هذه السورة بنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشابهوا المنافقين فى ذلك ، وكرر ذلك وبسطه ، إلى أن ختم به ، فكانت فى غاية الاتصال ، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف ، مع تآخيهما فى الافتتاح بـ ﴿سَبَّحَ﴾ [3] .

سُورَةُ الصَّفِّ

أقول : فى سورة الممتحنة ذكر الجهاد فى سبيل الله ، وبسطه فى هذه السورة أبلغ بسط [4] .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

أقول : ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما ذكر فى سورة الصف حال موسى مع قومه ، وأذاهم له ، ناعيًا عليهم ذلك [5] ،

---

(١) نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، لما أخبر المشركين بعزم النبى صلَّى الله عليه وسلم على فتح مكة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية ، البخارى فى التفسير (٦/ ١٨٥، ١٨٦) ، والترمذى فى التفسير (٩/ ١٩٨ - ٢٠٢) بتحفة الأحوذى ومسند الإمام أحمد (١/ ٧٩، ٨٠) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) نظم الدرر (٧/ ٥٤٧) .

(٤) نظم الدرر (٧/ ٥٧٠) .

(٥) وذلك فى قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ (الجمعة : ٥) الآية ، =

وذكر فى هذه السورة حال الرسول ﷺ ، وفضل أمته ، تشريفًا لهم ، ليظهر فضل ما بين الأمتين ، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود .

وأيضًا : لما ذكر[1] هناك قول عيسى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف : ٦) ، قال هنا : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ «٢» إشارة إلى أنه الذى بشر به عيسى ، وهذا وجه حسن فى الربط .

وأيضًا : لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم هذه بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية .

وأيضًا : فتلك سورة الصف ، والصفوف تشرع فى موضعين : القتال ، والصلاة ، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة ، وهى الجمعة ، لأن الجماعة شرط فيها ، دون سائر الصلوات .

فهذه وجوه أربعة فتح الله بها .

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون ، ولهذا أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم كان يقرأ فى

= وقال فى الصف عن بنى إسرائيل : إنهم كذبوا عيسى ، وكذبوا على الله ، وأرادوا أن يطفئوا نور الله ، فى الآيات (٦ - ٩) ، ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغباء ، وأبطل حجتهم فى أنهم شعب الله المختار (٥ - ٧) .

(١) فى (ظ) : « حكى » .

صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين [١] .

وتمام المناسبة : أن السورة التى بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التى قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى [٢] ، والتى قبلها وهى الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين [٣] . والتى قبلها وهى الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب [٤] ، فإنها نزلت فى بنى النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا .

وبذلك اتضحت المناسبة فى ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتمالها على أصناف الأمم ، وفى الفصل بين المسبحات بغيرها [٥] ، لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من ترك ذلك [٦] ، وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره .

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التى هى نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فلله الحمد على ما فهم وألهم .

هذا وقد ورد عن ابن عباس فى ترتيب النزول : أن سورة التغابن

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ١٩١) عن أبى هريرة ﷺ ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : إسناده حسن ، وفيه : يقرع بالقاف والراء المهملة ، وأخرج مثله مختصرًا عن أبى عبيدة الخولانى وعزاه للطبرانى فى الكبير .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ إلى ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن : ٥ - ٧) .

(٣) وذلك فى الآيات : (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

(٤) وذلك فى الآيتين : (٨ ، ٩) .

(٥) يعنى الفصل بين الحشر ، وأولها : سبح ، وبين التغابن وأولها : يسبح ، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون .

(٦) **فى المطبوعة** : « غيره » ، والمثبت من (ظ) .

نزلت عقب الجمعة [١] ، وتقدم نزول سورة « المنافقون » فما فصل بينهما إلا لحكمة والله أعلم .

سُورَةُ التَّغَابُن

أقول : لما وقع فى آخر سورة المنافقون : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ (المنافقون : ١٠) الآية ، عقب بسورة التغابن ، لأنه قيل فى معناه : إن الإنسان يأتى يوم القيامة ، وقد جمع مالاً ، ولم يعمل فيه خيرًا ، فأخذه وارثه بسهولة ، من غير مشقة فى جمعه ، فأنفقه فى وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعبه فى جمعه ، والوارث منعَّم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه ، وذلك هو التغابن [٢] .

فارتباطه بآخر السورة المذكورة فى غاية الوضوح ، ولهذا قال هنا : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ «١٦» .

وأيضًا ففى آخر تلك : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المنافقون : ٩) ، وفى هذه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ «١٥» ، وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها [٣] .

وقال بعضهم : لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وستين سورة ، أشير فيها إلى وفاة النبى صلَّى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ

---

(١) الإتقان (١/ ٩٧) ، وهو عن جابر بن زيد أيضًا ، وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن .
(٢) تفسير الكواش : (٤/ ورقة ١١٢) (أ) ، خط الأزهرية .
(٣) يعنى الأموال أولاً ، والأولاد ثانيًا ، وفى كلتا السورتين .

نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ (المنافقون : ١١) ، وأنه [١] مات على رأس ثلاث وستين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن فى فقده صلَّى الله عليه وسلم [٢] .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

أقول : لما وقع فى [آخر] [٣] سورة التغابن : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ (التغابن : ١٤) ، وكانت عداوة الأزواج تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، فعقبت [٤] ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق ، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

أقول : هذه السورة متآخية مع التى قبلها فى الافتتاح [٥] بخطاب النبى صلَّى الله عليه وسلم ، وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء ، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى .

ولما كانت تلك فى خصام نساء الأمة ، ذكر فى هذه خصومة نساء النبى صلَّى الله عليه وسلم إعظامًا لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين فى الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران [٦] .

---

(١) **فى المطبوعة** : « فإنه » ، والمثبت من (ظ) .
(٢) أورد السيوطى هذا القول فى الإتقان (٤/ ٣٠) غير معزو كما هو ههنا ، كدليل على أنه ما من شىء إلا ويمكن استخراجه من القرآن .
(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٤) **فى المطبوعة** : « عقب » ، والمثبت من (ظ) .
(٥) **فى المطبوعة** : « بالافتتاح » ، والمثبت من (ظ) .
(٦) وهما فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (التحريم ١١ ، ١٢) .

سُورَةُ تَبَارَكَ

أقول : ظهر لى بعد الجهد : أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، افتتحت هذه السورة بقوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ «٢» مرادًا بهما الكفر والإيمان فى أحد الأقوال[١] ، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته ، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط ، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين ، وآمنت امرأة فرعون ، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد ، لما سبق فى كل من القضاء والقدر .

[**ثم ظهر لى**][٢] **وجه آخر** : وهو أن [أول][٣] « تبارك » متصل بقوله فى آخر الطلاق : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق : ١٢) ، فزاد ذلك بسطًا فى هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ «٣ - ٥» ، وإنما فصلت بسورة التحريم ؛ لأنها كالتتمة لسورة الطلاق[٤] .

* * *

(١) **السلمى** : حقائق التفسير ورقة ٢٠١ ، خط .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وفى المطبوعة : « ووجه » .
(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٤) فى (ظ) : « كالقطعة والتتمة لسورة الطلاق » .
وانظر : نظم الدرر (٨/ ٦٢ ، ٦٣) .

سُورَةُ نٓ

أقول : لما ذكر سبحانه فى آخر [سورة][1] تبارك التهديد بتغوير الماء[2] ، استظهر عليه فى هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان فى ليلة بطائف طاف عليه[3] وهم نائمون ، فأصبحوا لم يجدوا له أثرًا ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق[4] ، وإذا كان هذا فى الثمار وهى أجرام كثيفة ، فالماء الذى هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ «١٩ ، ٢٠» وقال هناك : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ (الملك : ٣٠) إشارة إلى أنه يسرى عليه فى ليلة كما أسرى[5] على الثمرة فى ليلة .

سُورَةُ ٱلْحَاقَّةِ

أقول : لما وقع فى « ن » ذكر يوم القيامة مجملاً فى قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ (القلم : ٤٢) الآية ، شرح ذلك فى هذه السورة نبأ[6] هذا اليوم ، وشأنه العظيم[7] .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) ورد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (ن : الآية : ٣٠) وتغوير الماء : جفافه .

(٣) **فى المطبوعة** : « يطاف عليه فيها » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) جاء هذا فى سورة القلم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ إلى ﴿ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ (القلم : ١٧ - ٣١) .

(٥) **فى المطبوعة** : « سرى » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) **فى المطبوعة** : « بناء على » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٧) وذلك من أول السورة إلى قوله : ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (الحاقة : ٣٧) .

سُورَةُ سَأَلَ

أقول : هذه السورة كالتتمة لسورة الحاقة فى بقية وصف يوم القيامة والنار[(١)] .

و[قد][(٢)] **قال ابن عباس** : إنها نزلت عقب سورة الحاقة[(٣)] ، وذلك أيضًا من وجوه المناسبة فى الوضع .

سُورَةُ نُوحٍ

أقول : أكثر ما ظهر [لى][(٤)] فى وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال فى (سأل) : ﴿ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ (المعارج : ٤٠ ، ٤١) عقبه بقصة قوم نوح ، المشتملة على إغراقهم[(٥)] عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار[(٦)] وبدل خيرًا منهم ، [فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى ، كما وقعت قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) موقع الاستدلال والاستظهار][(٧)] لما ختم به تبارك .

هذا مع تآخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعد به الكافرين[(٨)] .

---

(١) وذلك من أول السورة إلى قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ (المعارج : ١٨) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) الإتقان : (١/ ٩٧) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) فى **المطبوعة** : « إبادتهم » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) فى (ظ) : « بحيث أنه لم يبق فى الأرض ديار » .

(٧) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٨) العذاب فى مطلع سأل من أول السورة : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ (المعارج : ١ ، ٢) ، وفى سورة نوح : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (نوح : ١) .

سُورَةُ الجِنِّ

أقول : قد فكرت مدة فى وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لى سوى أنه [سبحانه] [1] قال فى سورة نوح : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (نوح : ١٠ ، ١١) ، وقال فى هذه السورة [لكفار مكة] [2] : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ «١٦» ، وهذا وجه بين فى الارتباط [3] .

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

أقول : لا يخفى وجه اتصال أولها : ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ «٢» بقوله فى آخر تلك : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (الجن : ١٩) ، وبقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ (الجن : ١٨) [4] .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) . (٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) ومن المناسبة بين السورتين : أنه تعالى ذكر فى نوح : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح : ٢١) ، ومضى فى بيان كفرهم وضلالهم ، إلى أن دعا عليهم نوح ، ثم بين فى أول الجن : إنهم كالإنس فى الإيمان والكفر ، وأن لكفار الجن اتصالاً بكفار الإنس ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن : ٦) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ (الجن : ١١) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ ﴾ (الجن : ١٤) الآية ، فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والإنس ، وبيان المقارنة بينهما .

(٤) ومن المناسبة أنه تعالى لما قال فى نهاية الجن : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن : ٢٦ ، ٢٧) افتتح المزمل بذكر بداية إرسال النبى صلىَّ الله عليه وسلم ، وما كلف به من شعائر العبودية والعبادة والدعوة ، وذلك لأن النبى صلىَّ الله عليه وسلم بعث بين يدى الساعة كما جاء فى السُّنة ، وقد قال تعالى فى الجن : ﴿ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (الجن : ٢٥) ، فكأنه قال : هذه المزمل علم من أعلامها ، فهو الذى ارتضاه الله ليظهره على غيبه ، وأنه بين يدى الساعة .

سُورَةُ المدَّثر

أقول : هذه متآخية مع السورة التى قبلها فى الافتتاح بخطاب النبى صلَّى الله عليه وسلم وصدر كليهما نازل فى قصة واحدة .

وقد ذكر عن ابن عباس فى ترتيب نزول السور : أن المدثر نزلت عقب المزمل [كذا] (١) أخرجه ابن الضريس ، وأخرجه غيره عن جابر ابن زيد (٢) .

سُورَةُ القِيَامَةِ

أقول : لما قال سبحانه فى آخر المدثر : ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (المدثر : ٥٣) بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر فى هذه السورة الدليل على البعث [من أوجه] (٣) ، ووصف يوم القيامة ، وأهواله ، وأحواله ، ثم ذكر ما قبل ذلك [من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك] (٤) من مبدأ الخلق ، فذكرت الأحوال [الثلاثة] (٥) فى هذه السورة على عكس ما هى فى الواقع .

سُورَةُ الإِنسَانِ

أقول : وجه اتصالها بسورة القيامة فى غاية الوضوح ، فإنه تعالى ذكر فى آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم ذكر مثل ذلك فى

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) وفيها كذلك زيادة إعلام بالساعة وأهوالها فى قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ إلى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ (المدثر : ٨ - ٤٨) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

مطلع هذه السورة ، مفتتحًا بخلق آدم أبى البشر .

ولما ذكر هناك خلقه [من نطفة][1] منهما ، قال هنا : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ (القيامة : ٣٩) ، ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ «٢» ، فعلق به غير ما علق بالأول ، ثم رتب عليه هداية السبيل ، وتقسيمه إلى شاكر وكفور ، ثم أخذ فى جزاء كل .

ووجه آخر هو : أنه لما وصف حال يوم القيامة فى تلك السورة ، ولم يصف فيها حال النار والجنة ، بل ذكرهما على سبيل الإجمال ، فصلهما فى هذه السورة ، وأطنب فى وصف الجنة[2] ، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٢) وقوله هنا : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ «٤» ، شرح لقوله هناك : ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٥) .

وقد ذكر هناك : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (القيامة : ٢٠ ، ٢١) وذكر هنا فى هذه السورة : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ «٢٧» ، وهذا من وجوه المناسبة[3] .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) تفصيل أحوال المؤمنين فى الجنة مفصل هنا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ إلى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإنسان : ٥ - ٢٢).

(٣) ومن وجوه المناسبة بين سورة الإنسان وسورة القيامة : أنه تعالى فصل فى القيامة أحوال الكافرين عند الموت وما يعانون من قهر وندم فى قوله : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ إلى ﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ (القيامة : ٢٦ - ٣٥) ، وفى هذه السورة فصل أحوال المؤمنين فى حياتهم ، والتى استوجبوا بها النعيم الموصوف فى السورة ، وذلك من قوله : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ إلى ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (الإنسان : ٧ - ١١) .

سورة المرسلات

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر فى خاتمتها أنه ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الإنسان : ٣١) افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك تحقيقًا لما وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين .

ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ «٨» إلى آخره .

ويحتمل أن تكون الإشارة بما توعدون[(١)] إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين ، ووعد للأبرار[(٢)] .

* * *

(١) **فى المطبوعة** : « يوعدون » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) وهناك مناسبة بين القيامة والإنسان والمرسلات من ناحية خلق الإنسان ففى القيامة قال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ (القيامة : ٣٧ - ٣٩) ، فذكر بداية الخلق ، وفى الإنسان تدرج إلى الحديث عن إتمام بناء الإنسان حتى صار شديد الأسر ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ (الإنسان : ٢٨) الآية ، ولما كانت قوة الإنسان مظنة كبريائه ، ذكره فى المرسلات بمهانة أصله : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات : ٢٠) .

ومعانى السور الثلاث تدور حول الأصول ، ولذلك قال فى المرسلات : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ (المرسلات : ٣٩) ، إعلامًا بقهره للعباد .

وانظر : نظم الدرر (٨/ ٢٨١) وما بعدها ، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ١٤٧) .

سورة عم

أقول : وجه اتصالها بما قبله : تناسبها معها فى الجمل ، ففى المرسلات[(١)] : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾ (المرسلات : ١٦ ، ١٧) ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات : ٢٠) ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ (المرسلات : ٢٥) إلى آخره ، وفى عم : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ «٦» إلى آخره ، فذلك نظير تناسب جمل : ألم نشرح ، والضحى ، بقوله فى الضحى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى : ٦) إلى آخره ، وقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح : ١) مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها فى الاشتمال على وصف الجنة والنار ، ماعدا المدثر فى الاشتمال على وصف يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث .

وأيضًا فى سورة المرسلات : ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ (المرسلات : ١٢ - ١٤) ، وفى هذه السورة : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ «١٧ ، ١٨» إلى آخره ، فكأن هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره فى السورة التى قبلها[(٢)] .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : « تلك » .

(٢) لم يذكر المؤلف سورة النازعات ، ومناسبتها لما قبلها ، ونرى والله أعلم : أنه طال وصف يوم القيامة فى النبأ ، ثم ذكر فى النازعات حجة من أنكرها ورد عليها ، فقال : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ (النازعات : ١٠ ، ١١) ، وذكر ندامتهم على تفريطهم بقوله : ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ (النازعات : ١٢) ، ثم أكد قدرته على إحياء الموتى ، وأقام الدليل عليها فى بقية السورة .

[سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها عقب سورة عم ، وأولها يشبه أن يكون قسمًا لتحقيق ما فى آخر عم ، أو ما تضمنته كلها على حد ما تقدم فى ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ مع ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ مع ﴿ قٓ ﴾][1] .

سُورَةُ عَبَسَ

أقول : وجه وضعها عقب النازعات مع تآخيهما فى المقطع ، لقوله هناك : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ (النازعات : ٣٤) وقوله هنا : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ «٣٣» ، وهما من أسماء يوم القيامة[2] .

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

أقول : لما ذكر فى [آخر][3] عبس : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ (عبس : ٣٣ ، ٣٤) الآيات ، ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين [شرح حاله فى هذه السورة ، والتى بعدها ، ولهذا ورد][4] فى الحديث : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين ، فليقرأ :

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ، ونقول : إن **الطامة** من الطم ، من طمث البئر إذا كبستها ، وسميت به القيامة لأنها تطم كل شىء ، **والصاخة** من الصخ ، وهو الصوت الشديد ، وسميت به لأنه بشدة صوتها يجثو لها الناس ، وخصت النازعات بالطم لأنه قبل الصخ ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبعها . **انظر** : (أسرار التكرار فى القرآن : ٢٠١) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ «١» و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ (الانفطار : ١) و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ [(١)] (الانشقاق : ١) .

سُورَةُ الانفِطَارِ

أقول : قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تآخيهما فى المقطع [(٢)] .

سُورَةُ المطَفِفِينَ

أقول : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التى هى نظيرتها من خمسة أوجه : الافتتاح بـ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ﴾ (الانفطار ، الانشقاق) ، والتخلص بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ ﴾ (الانفطار ، الانشقاق : ٦) ، وشرح حال يوم القيامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابق ، والتناسب فى المقدار ، وكونها مكية .

وهذه السورة مدنية [وأطول منهما] [(٣)] ، ومفتتحها ومخلَصها غير ما لهما [(٤)] لنكتة [لطيفة] [(٥)] ألهمنيها الله ، وذلك أن السور الأربع لما كانت فى صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه .

فغالب ما وقع فى التكوير ، وجميع ما وقع فى الانفطار ، يقع [(٦)] فى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٧٢) ، والترمذى فى التفسير (٩/ ٢٥٢ ، ٢٥٣) بتحفة الأحوذى .

(٢) مقطع التكوير : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ (التكوير : ٢٩) ، ومقطع الانفطار : ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔا ۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار : ١٩) ، وهما بمعنى ، وفى (ظ) : « المطلع » .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : « لها » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) **فى المطبوعة** : « وقع » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

صدر يوم القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره فى هذه السورة بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ « ٦ » ولهذا ورد فى الحديث : « يقوم أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » [١] .

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمين ، وأَخْذٌ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب .

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التى فيها إتيان الكتب والحساب [٢] ، عن السورة التى قبلها ، والتى فيها ذكر الموقف عن التى فيها مبادئ يوم القيامة .

ووجه آخر وهو : أنه جل جلاله لما قال فى الانفطار : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ (الانفطار : ١٠ ، ١١) ، وذلك فى الدنيا ، ذكر فى هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو : كتاب مرقوم جعل [٣] فى عليين ، أو فى سجين ، وذلك أيضًا فى الدنيا ، لكنه عقَّب بالكتابة ، إما فى يومه ، أو بعد الموت فى البرزخ كما فى الآثار ، فهذه حالة ثانية للكتاب [٤] ذكرت فى السورة الثانية .

وله حالة ثالثة متأخرة عنها [٥] ، وهى أخذ صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التى فيها ذلك ، عن

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (٦/ ٢٠٧) عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى المسند مع اختلاف فى اللفظ (٢/ ١٣ ، ١٩) ، وعلى المطابقة (٢/ ٣١) .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ إلى : ﴿ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴾ (الانشقاق : ٧ - ١٢) .

(٣) فى (ظ) : « يجعل » .

(٤) فى **المطبوعة** : « فى الكتاب » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) فى **المطبوعة** : « فيها » ، والمثبت من (ظ) .

السورة التى فيها الحالة الثانية ، وهى الانشقاق ، فللّه الحمد على ما منّ بالفهم لأسرار كتابه[1] .

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال فى سورة المطففين أيضًا : اتصال أولها بآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته [أنه][2] ﴿ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار : ١٩) وذلك يقتضى تهديدًا عظيمًا للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ «١» الآيات[3] .

سُورَةُ الانشِقَاقِ

قد استوفى الكلام فيها فى سورة المطففين .

سُورَةُ البُرُوجِ وَالطَّارِقِ

أقول : هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرا بعد الانشقاق للمؤاخاة فى الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد فى الحديث ذكر السموات مرادًا بها السور الأربع[4] ، كما قيل : المسبحات .

* * *

(١) **انظر** : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ١٦٨) .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٣) **انظر** : مفاتيح الغيب للرازى (٨/ ٤٩٦) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٣٢٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلّى الله عليه وسلم أمر أن يقرأ بالسموات فى العشاء ، يعنى : السور الأربع المفتتحة بذكر السماء .

سُورَةُ الأَعْلَى

أقول : فى سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان فى قوله : ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [1] (الطارق : ١٢) [وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ إلى ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق : ٥ - ٨) ، وذكره فى هذه السورة فى قوله : ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ «٢» ، وقوله فى النبات : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ «٤ ، ٥» ، وقصة النبات فى هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط ، نعم ، ما فى هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات .

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

أقول : لما أشار سبحانه فى سورة الأعلى بقوله : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى : ١٠ - ١٧) إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالاً ، فصل ذلك فى هذه السورة ، فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط ما هنالك ، ولذا قال [هنا] : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ «٣» فى مقابل : ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ (الأعلى : ١١) [هناك] وقال [هنا] ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ «٤» إلى : ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ «٧» فى مقابلة : ﴿ يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٢) [هناك] ، ولما قال [هناك] فى الآخرة : ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى : ١٧) بسط [هنا] صفة الجنة أكثر من صفة النار ، تحقيقًا لمعنى الخيرية .

---

(١) **والصَّدْع** : النبات ، والأرض تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ، والصدع بمعنى الشق ؛ لأنه يصدع عن الأرض . **انظر** : العمدة فى غريب القرآن ص (٣٤٣) .

سُورَةُ الفَجْرِ

أقول : لم يظهر لى فى[1] وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التى قبلها ، من قوله جل جلاله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية : ٢٥ ، ٢٦) ، وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد ، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما فى (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما فى [﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ وأول ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ قسم على تحقيق ما فى][2] (عم) .

هذا مع أن جملة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ «٦» هنا ، مشابهة لجملة ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ (الغاشية : ١٧) هناك[3] .

سُورَةُ البَلَدِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذم فيها من أحب المال ،

---

(١) فى **المطبوعة** : : « من » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) بل هناك وجوه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف ، وذلك أنه تعالى ذكر فى الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر فى سورة الأعلى ، ثم زاد الأمر تفصيلاً فى الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ، فضرب لذلك مثلاً بقوم عاد ، وقوم فرعون ، فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر : ٦ - ١٤) ، ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم فى قوله : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ (الفجر : ١٧) وما بعدها ، فكانت هذه السورة بمثابة إقامة الحُجة عليهم .

وكذلك جاء فى الغاشية : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) ، ثم ذكر فى الفجر مادة تذكير من كان قبلهم من الكفار ، ثم أخذ الله إياهم فى الدنيا ، وأنه سيعذبهم فى الآخرة ، وأن الندم لن ينفعهم شيئًا ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر : ٢٣ ، ٢٤) .

وأكل[1] التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر فى هذه السورة الخصال التى تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم ذى مسغبة[2] .

سُورَةُ الشمس واللَّيل وَالضُّحَىٰ

أقول : هذه الثلاثة حسنة التناسق جدًّا ، لما فى مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل[3] والضحى من الملابسة ، ومنها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق ، وبين المسبحات ؛ لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد فى المناسبة .

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين فى سورة الشمس على سبيل الفَذْلَكَةِ[4] فقوله [فى الشمس] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ «٩» هم أصحاب الميمنة فى سورة البلد ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ «١٠» [فى الشمس] ، هم أصحاب المشأمة فى سورة

---

(١) فى **المطبوعة** : «وأكثر» تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ومن التناسب أيضًا بين هذه السور وسابقتها : أنه تعالى لما ذكر فى تلك ابتلاء الإنسان بضيق الرزق بسبب عدم إطعام المسكين ، وعدم إكرام اليتيم ، ونعى عليه حب المال ، ذكر فى هذه ندمه يوم القيامة ، وتذكره حبس المال ، وذلك حين يقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر : ٢٤) .

(٣) فى (**ظ**) : «والقمر» .

(٤) **الفَذْلَكَةُ** : مُجملُ ما فُصِّل وخلاصته (وهى كلمة مولدة : أى استعملها الناس قديمًا بعد عصر الرواية) . **انظر** : «المعجم الوسيط» (فذلكة) (٢/ ٧٠٣) .

البلد ، فكانت هذه السورة فَذْلَكَةَ تفصيل تلك السورة ، ولهذا قال الإمام : المقصود من هذه السورة : الترغيب فى الطاعات ، والتحذير من المعاصى .

ونزيد فى سورة الليل : أنها تفصيل إجمال سورة الشمس ، فقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ (الليل : ٥) وما بعدها ، تفصيل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (الشمس : ٩) ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ (الليل : ٨) الآيات ، تفصيل قوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ١٠) .

ونزيد فى سورة الضحى : أنها متصلة بسورة الليل من وجهين ، فإن فيها : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ (الليل : ١٣) ، وفى الضحى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ «٤» ، وفى الليل : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (الليل : ٢١) وفى الضحى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ «٥» .

ولما كانت سورة الضحى نازلة فى شأنه صلَّى الله عليه وسلم ، افتتحت بالضحى ، الذى هو نور ، ولما كانت سورة الليل [نازلة فى بخيل فى قصة طويلة ، افتتحت بالليل الذى هو ظلمة .

قال الإمام : سورة الليل](١) سورة أبى بكر ، يعنى : ماعدا قصة البخيل(٢) ، وكانت سورة الضحى سورة محمد ، عقب بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبى بكر .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وانظر هذه القصة فى تفسير القرآن العظيم لابن أبى حاتم (١/ ٣٤٣٩ - ٣٤٤٠) .

(٢) الذى نزل فى أبى بكر رضي الله عنه من هذه السورة قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ إلى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الليل : ٥ - ٧) أخرج ابن جرير أنه كان يعتق على الإسلام بمكة عجائز ونساء إذا أسلمن فلامه أبوه ، فنزلت (تفسير ابن جرير الطبرى ٣٠/ ١٤٢) .

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ

أقول : هى شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبهما فى الجمل ، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما [(١)] قال الإمام : والذى دعاهم إلى ذلك هو : أن قوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ كالعطف على ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَئَاوَىٰ ﴾ (الضحى : ٦) [فى الضحى] [(٢)] .

قلت : وفى حديث الإسراء أن الله تعالى قال : « يا محمد ، ألم أجدك يتيمًا فأويت ، وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت » الحديث ، أخرجه ابن أبى حاتم [(٣)] ، وفى هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى .

سُورَةُ التِّينِ

أقول : لما تقدم فى سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس : ٧) فصل فى هذه السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ «٤ ، ٥» إلى آخره .

---

(١) نقل هذا القول فخر الدين الرازى فى تفسيره عن طاوس وعمر بن عبد العزيز (تفسير سورة الضحى) .

(٢) هى كالعطف فى المعنى لا فى اللفظ ، ثم إن هذه السورة شرح لسابقتها ، فشرح الصدر هناك ، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التى هى : الإيواء بعد اليتم ، والهداية بعد الضلال ، والغنى بعد العيلة ، فتلك كلها من عوامل انشراح الصدر للإيمان ، لا سيما وقد جاءت بعد وعد بالعطاء حتى يرضى الرسول ﷺ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبى حاتم (١٠/ ٣٤٤٣) والحديث ذكره أيضًا ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم (٨/ ٤٥٢) ، **وانظر** : الدر المنثور (٨/ ٥٤٥ - ٥٤٦) .

وأخرت هذه السورة لتقدم ما هو أنسب بالتقديم من السور الثلاث[1] واتصالها بسورة البلد لقوله : ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ «٣» وأخرت لتقدم ما هو أولى بالمناسبة مع سورة الفجر[2] .

لطيفــة :

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى[3] فى « لطائف المنن » عن الشيخ أبى العباس المرسى[4] ، قال : قرأت مرة : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ «٤ ، ٥» ففكرت فى معنى هذه الآية ، فألهمنى الله أن معناها[5] : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، روحًا وعقلاً ثم رددناه أسفل سافين نفسًا وهوى[6] .

قلت : فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ، فإن تلك أخبر فيها عن شرح صدر النبى صلَّى الله عليه وسلم ، وذلك يستدعى كمال عقله وروحه ، فكلاهما فى القلب الذى محله الصدر ، وعن

---

(١) يعنى (الليل ، والضحى ، وألم نشرح) فإن مناسباتها متوالية هكذا أهم من تقديم التين بعد الشمس .

(٢) يعنى أن اتصال سورة الشمس بالبلد ، واتصال البلد بالفجر ، أولى من اتصال التين بالبلد لمجرد ذكر (البلد فى كليهما) .

(٣) هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عطاء الله السكندرى المالكى الشاذلى ، كانت له جلالة عظيمة ووقع فى النفوس ، ومشاركة فى الفضائل ، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف . **انظر** : « شذرات الذهب » (٦/ ١٩ - ٢٠) و « لطائف المنن » (٧) .

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى شيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى . **انظر** : « لطائف المنن » (١٩) .

(٥) فى (ظ) : « فكشف لى عن اللوح المحفوظ ، فإذا مكتوب فيه » ، وكذا فى « لطائف المنن » (١٣٤) (طبعة دار المعارف) .

(٦) **انظر** : « لطائف المنن » (ص ١١٨) ، المطبعة الفخرية ١٩٧٢م القاهرة .

تبرئته[١] من الوِزْرِ الذى ينشأ عن[٢] النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ، وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل وصم[٣] .

فلما كانت هذه السورة فى هذا العلَم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسى ، وذكر ما خامرهم من[٤] متابعة النفس والهوى .

سُورَةُ الْعَلَق

أقول : لما تقدم فى سورة التين بيان خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، بيَّن هنا أنه تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ «٢» وذلك ظاهر الاتصال ، فالأول بيان العلة الصورية ، وهذا بيان العلة المادية[٥] .

سُورَةُ الْقَدْرِ

قال الخطابى[٦] : لما اجتمع أصحاب النبى صلَّى الله عليه وسلم على

(١) **فى المطبوعة** : « خلاصه » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) **فى المطبوعة** : « من » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) **فى المطبوعة** : « موهم » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) **فى المطبوعة** : « فى » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) **أقول** : ومن المناسبة بين التين والعلق :

(أ) أنه تعالى لما قال فى آخر التين : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (التين : ٨) بين فى أول العلق أنه تعالى مصدر علم العباد بحكمته ، فبين أنه ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ٤ ، ٥) ، وصدر ذلك بالأمر بالقراءة ، واستفتاحها باسمه دائمًا ، لتكون للإنسان عونًا على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين .

(ب) لما ذكر فى التين خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ورده إلى أسفل سافلين ، بيَّن فى العلق تفصيل الحالين وأسبابهما من أول قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق : ٦ ، ٧) إلى ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (العلق : ١٤) .

(٦) **الخطابى** هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان ، له شرح سنن أبى داود وبيان إعجاز القرآن ، توفى سنة ٣٨٨ (وفيات الأعيان ١/ ١٦٦) ، والنقل من (البرهان لأبى جعفر بن الزبير) كما قال السيوطى (الإتقان : ٣/ ٣٨٣) .

القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية فى قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ «١» الإشارة إلى قوله ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ (العلق : ١) .

قال القاضى أبو بكر بن العربى : وهذا بديع جدًّا[(١)] .

سُورَةُ لَمْ يَكُن

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ (القدر : ١) **قيل** : لم أنزل ؟ **فقيل** : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، وذلك هو المنزَّل .

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان فى هذه السورة قرآن نُسخ رسمه وهو : إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديًا لابتغى إليه الثانى ، ولو أن له الثانى لابتغى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب[(٢)] .

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر

---

(١) **أقول** : وهناك مناسبة أخرى خفية ، هى أنه تعالى لما ختم العلق بالأمر بالسجود والاقتراب من الله ، وكان المقصود من الاقتراب ، التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلى ، والصلاة لا تكون إلا بقرآن ، ذكر فى أول هذه السورة أن القرآن رحمة فى ذاته ، ورحمة فى الزمان الذى نزل فيه وهو ليلة القدر التى تتنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند عن أبى واقد الليثى (٥/ ٢١٨) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٤٧ ، ٢٤٨) ، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/ ٣١٨) ، والدارقطنى فى العلل الواردة فى الأحاديث (٦/ ٢٩٨) وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٤٠) إلى أحمد والطبرانى ، وقال : رجال أحمد رجال الصحيح .

هناك إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تعليلاً [1] لما تضمنته سورة اقرأ ، لأن [في] [2] أولها ذكر العلم ، وفي أثنائها ذكر المال ، فكأنه **قيل** : إنا لم ننزل المال للطغيان والاستطالة والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة [3] .

سُورَةُ الزَّلزلةِ

أقول : لما ذكر في آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء المؤمنين جنات ، فكأنه **قيل** : متى يكون ذلك ؟ **فقيل** : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ «١» أي [حين] تكون [4] زلزلة الأرض ، إلى آخره .

هكذا ظهر لي ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازي ، ورأيته ذكر نحوه فحمدت [5] الله كثيرًا ، وعبارته : ذكروا في مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوهًا منها : أنه تعالى لما قال : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴾ (البينة : ٨) فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يا رب ؟ فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ «١» .

ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد في وعيد الكافرين فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ونظيره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [6] ثم ذكر ما للطائفتين فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ

(١) في (ظ) : « تفصيلاً » .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) العلم في قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ٥) ، والمال في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق : ٦ ، ٧) .

(٤) في (ظ) : « يكون يوم » .

(٥) في **المطبوعة** : « حمدت » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٦ .

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ [1] إلى آخره ، ثم جمع بينهما هنا فى آخر السورة بذكر الذرة من [2] الخير والشر . انتهى [3] .

سُورَةُ ٱلعَادِيَاتِ

أقول : لا يخفى ما بين قوله فى الزلزلة : ﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴾ (الزلزلة : ٢) وقوله فى هذه السورة : ﴿ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ «٩» من المناسبة والعلاقة [4] .

سُورَةُ ٱلقَارِعَةِ

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴾ «١١» فكأنه **قيل** : وما ذاك ؟ **فقال** : هى القارعة ، **قال** : وتقديره : ستأتيك القارعة على ما أخبرت عنه فى قولى [5] : ﴿ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [6] «٩» .

* * *

(١) سورة آل عمران : ١٠٦ .
(٢) **فى المطبوعة** : « الذى يعمل » والمثبت من (ظ) .
(٣) مفاتيح الغيب ، للرازى (٨/ ٦٥٨) وما بعدها .
(٤) **أقول** : وهناك مناسبة أخرى هى : بيان الأصل الذى يضل به الإنسان أو يهتدى ، فلما ذكر فى آخر الزلزلة جزاء الإنسان على الخير والشر ، بيَّن هنا أن الإنسان بطبعه يحب الخير ، وحبه للخير إما للدنيا وهو الشر ، وإما للآخرة وهو حقيقة الخير ، فهذا الحب هو الذى يوجه الأعمال ، ثم ذكَّر الإنسان بيوم يكشف فيه عما فى القلوب من نوايا خفية : ﴿ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (العاديات : ٩ ، ١٠) إلى آخر السورة ، وقد زاد الأمر تفصيلاً فى السور التالية .
(٥) **فى المطبوعة** : « بقولى » ، والمثبت من (ظ) .
(٦) مفاتيح الغيب ، للرازى (٨/ ٦٦٣) .

سورة التكاثر[1]

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ (القارعة : ٩) **قيل** : لم ذلك ؟ **فقال** : لأنكم ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ «١» فاشتغلتم بدنياكم [عن دينكم][2] ، وملأتم موازينكم بالحطام ، فخفت موازينكم بالآثام ، ولهذا عقَّبها بسورة والعصر ، المشتملة على أن الإنسان فى خُسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وربح[3] تجارة الآخرة ، ولهذا عقَّبها بسورة الهُمزة ، المتوعَّد فيها مَن ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ (الهمزة : ٢ ، ٣) فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها[4] .

سورة الفيل

[**أقول** :][5] ظهر لى فى وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الهمزة اللُّمزة ، الذى جمع مالاً وعدّه ، وتعزز بماله وتقوّى ، عقَّب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وعتوًا ، وقد جعل كيدهم فى تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالهم ولا عددهم[6] ولا شوكتهم ، ولا فِيلُهُمْ شيئًا .

---

(١) فى (**ظ**) : « ألهاكم » .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) فى (**ظ**) : « ونماء » .

(٤) ومن المناسبة كذلك : التصريح هنا بوزن الأعمال التى أجملها فى الزلزلة ، وبين أصلها فى العاديات وانظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ٢٤١) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) فى **المطبوعة** : « عزهم » ، والمثبت من (ظ) .

فمن كان قصارى تعزُّزه وتقوِّيه بالمال ، وهَمز[1] الناس بلسانه ، أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور فى أولها بالفعل فى آخر تلك ، ولهذا كانتا فى مصحف أبىٍّ سورة واحدة[2] .

سُورَةُ المَاعُونِ[3]

أقول : لما ذكر [الله][4] تعالى فى سورة قريش : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ (قريش : ٤) ذكر هنا ذم من لم يَحض على طعام المسكين .

ولما قال هناك : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ (قريش : ٣) ذكر[5] هنا من سها عن صلاته[6] .

* * *

(١) فى (ظ) : « وأذى » .

(٢) نقله السيوطى عن السخاوى فى كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق ، وأبى نهيك ، وقال : ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانئ رضى الله عنها أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال : فضل الله قريشًا بسبع ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : لإيلاف قريش ، ومع ذلك فصلة قريش بالفيل قائمة ، فكأن ما فعل الله بأصحاب الفيل كان لايلاف قريش ، ولتأمين طريق تجارتهم فى رحلتى الشتاء والصيف ، وقد كان من أهداف أبرهة السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه .

(٣) فى (ظ) : « الدين » .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) فى (ظ) : « ذم » .

(٦) **أقول** : إن السورة بكاملها تسير مع الخط الذى يبدأ من سورة الزلزلة كما قلنا ، فهى ترشد إلى الطريق السليم لاستعمال المال ، وبذله فى عون اليتامى ، وإطعام المساكين ، وذلك عن طريق التحذير من إهمال هذا الطريق ، وتسمية مانع العون مكذبًا بالدين .

سورة الكوثر

قال الإمام فخر الدين : هى كالمقابلة للتى قبلها ؛ لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ، وذكر فى هذه السورة فى مقابلة البخل : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ «١» أى : الخير الكثير ، وفى مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَلِّ﴾ «٢» أى : دُم عليها ، وفى مقابلة الرياء : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ «٢» أى : لرضاه ، لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ «٢» وأراد به : التصدق بلحوم الأضاحى ، **قال** : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة [١] .

سورة الكافرون

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما قال : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ (الكوثر : ٢) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالغ فى ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه .

سورة النصر

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه [لما] [٢] قال فى آخر ما قبلها ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ٦) فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكدر [٣] والمخالفين ، فعقَّب ببيان وقت ذلك ، وهو مجىء

---

(١) **انظر** : « مفاتيح الغيب » ، للرازى (٨/ ٧٠٠ ، ٧٠١) ، **وانظر** : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » (٨/ ٥٤٧) وما بعدها ، وفيه كلام قريب من كلام الرازى .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) **فى المطبوعة** : « الكفار » ، والمثبت من (ظ) .

الفتح والنصر ، فإن الناس حين[1] دخلوا فى دين الله أفواجًا ، فقد تــم[2] الأمر وذهب الكفر[3] ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته صلَّى الله عليه وسلم[4] .

وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك فى السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبرى منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع[5] .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما أعطاه [الله][6] الكوثر ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقَّبها بمجاهدة الكفار ، والتبرى منهم ، فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجًا إلى دينه ، وأشار إلى دنوّ أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال .

* توقع زوالاً إذا قيل تم *[7]

* * *

---

(١) فى (ظ) : « حينئذ » .

(٢) فى (ظ) : « وتم » .

(٣) فى (ظ) : « الكدر » .

(٤) أخرج البخارى هذا المعنى فى التفسير (٦/ ٢٢٠ ، ٢٢١) ، عن ابن عباس رضى الله عنهما والإمام أحمد فى المسند (١/ ٢١٧ ، ٣٤٤، ٣٥٦) ، وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٢١٥) .

(٥) **انظر** : « مفاتيح الغيب » للرازى (٨/ ٧٢٩) وما بعدها .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهى فى المصادر .

(٧) **انظر** : « مفاتيح الغيب » للرازى (٨/ ٧٤٣) ، **وانظر** : « نظم الدرر » (٨/ ٥٥٩) وما بعدها .

سُورَةُ تَبَّتْ

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون : ٦) فكأنه **قيل** : إلهى ، وما جزائى ؟ فقال **الله** له : النصر والفتح ، **فقال** : وما جزاء عمى الذى دعانى إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ «١» الآيات .

وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً [(١)] بقوله : ﴿ وَلِيَ دِينِ﴾ ويكون الوعيد راجعًا إلى قوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ على حد قوله : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾(آل عمران : ١٠٦) .

قال : فتأمل فى هذه المجانسة الحافلة [(٢)] بين هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة [(٣)] ، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة [(٤)] ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من **الله** ، وبأمره .

قال : **ووجه آخر** : وهو : أنه لما قال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون : ٦) كأنه قيل : يا إلهى ، ما جزاء المطيع ؟ **قال** : حصول النصر والفتح ، **فقيل** : وما ثواب العاصى ؟ **قال** : الخسارة فى الدنيا ، والعقاب فى العقبى ، كما دلت عليه سورة تبَّت [(٥)] .

* * *

(١) فى « ظ » : « متصلاً » .

(٢) فى (ظ) : « الحاصلة » .

(٣) أخرجه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما (٨/ ٢٤٢ ، ٢٤٣) ، وفيها أنها آخر سورة نزلت .

(٤) **انظر** : « الإتقان » (١/ ٩٦) .

(٥) **انظر** : « مفاتيح الغيب » ، للرازى (٨/ ٧٤٤) وما بعدها ، وكذا « نظم الدرر » (٨/ ٥٦٧) وما بعدها .

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فى اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تبَّت .

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان فى اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون فى المعنى ، ولهذا **قيل** : من أسمائها أيضًا : الإخلاص ، وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضًا مشتملة عليه ، ولهذا قرن بينهما فى القراءة فى الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة (١) .

وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده أحد (٢) ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس فى معبوداتهم ما هو كذلك .

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين (٣) لما تقدم من الحكمة ، وكأن إيلاءها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

* * *

(١) أخرج الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر رضى الله عنهما (٢/ ١٢٠) أن النبى صلَّى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر سفرًا بالكافرين والإخلاص ، وأخرج ابن حجر فى « المطالب العالية » (٣/ ٣٩٩) عن النبى صلَّى الله عليه وسلم يقول بضعًا وعشرين مرة : « نعم السورتان ، يقرأ فى الركعتين : الأحد الصمد ، وقل يا أيها الكافرون » وأخرج عن أبى يعلى من حديث جبير ابن مطعم أنه صلَّى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ : « الكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتين » (المصدر السابق : ٣/ ٣٩٨) .

(٢) فى (ظ) : « واحد » .

(٣) يعنى بين (الكافرين والإخلاص) بالنصر وتبت .

سُورَةُ الفَلَقِ وَالنَّاسِ

قال : أقول : هاتان السورتان نزلتا[1] معًا ، كما فى الدلائل للبيهقى ، فلذلك قُرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقَّب بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت فى الحديث بالمعوذات ، وبالقواقل[2] .

وقدمت الفلق على الناس - وإن كانت أقصر منها - لمناسبة مقطعها فى الوِزَان لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت[3] .

وهذا آخر ما من الله به علىَّ من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتى ، ولم أعثر فيه على شىء لغيرى إلا النزر اليسير الذى صرحت بعزوى له ، فللَّه الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما مَنَّ به وأنعم ، سبحانك لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كلما أثنيت على نفسك .

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر فى تفسيره[4] كلامًا لطيفًا فى

---

(١) **فى المطبوعة** : « نزلنا » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٢) الذى عثرت عليه حديث عبدالله بن خبيب عن أبيه رضى الله عنهما قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلَّ الله عليه وسلم ، فأخذ بيدى فقال : « قل ، فسكت . فقال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثًا تكفك ، كل يوم مرتين » (مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٥ ، وأبو داود فى الأدب ما يقول إذا أصبح : ١٧٦/٢ ، والنسائي فى الاستعاذة : ٨/ ٢٥٠، والترمذى فى الدعوات : ٣٤٧/٩) وحديث أن النبى صلَّ الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن كل ليلة ثلاث مرات (البخارى فى فضائل القرآن : ٢٢٣/٦) .
ونقل النيوطى عن السخاوى قوله : (وقوارع القرآن الآيات التى يتعوذ بها ويتحصن ، سميت بذلك لأنها تقرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسى والمعوذتين) (الإتقان : ١/ ٢٠١) ، أما كلمة (القواقل) التى ذكرها المؤلف فلم نعثر عليها فى الحديث النبوى ومصادره .

(٣) **مقطع الفلق** (حسد) مناسب لفواصل الإخلاص (أحد ، الصمد ، أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة فى الوزن .

(٤) واسمه : « مفاتيح الغيب » .

مناسبات هذه السور ، فقال فى سورة الكوثر [1] :

اعلم أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها .

أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة « الضحى » فى مدح النبى صلىَّ الله عليه وسلم ، وتفصيل أحواله ، فذكر فى أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى : ٣ - ٥) ، ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى : ٦ - ٨) .

ثم ذكر فى سورة « ألم نشرح » أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوِزْرِ ، ورفع الذكر .

ثم شرفه فى سورة « التين » بثلاثة أنواع [من التشريف] [2] : أقسم ببلده ، وأخبر بخلاص أمته من الناس بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ووصولهم إلى الثواب [3] بقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين : ٦) .

وشرَّفه فى سورة اقرأ بثلاثة أنواع : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (العلق) ، وقهر خصمه بقوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ (العلق : ١٧ ، ١٨) وتخصيصه بالقرب فى قوله : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق : ١٩) .

وشرَّفه فى سورة « القدر » بليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها خيرًا من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلامًا حتى مطلع الفجر .

---

(١) كلام السيوطى المنقول من تفسير الرازى فيه اختصار هنا .

(٢) ما بين المعقوفين من تفسير الرازى .

(٣) فى (ظ) : « ورفعه له بالثواب » وهى كذلك فى تفسير الرازى .

وشرَّفه فى (لم يكن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ، وجزاؤهم جنات ، ورضى عنهم .

وشرَّفه فى « الزلزلة » بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم أعمالهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة .

وشرَّفه فى (العاديات) بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها بثلاثة صفات .

وشرَّفه فى (القارعة) بثقل موازين أمته ، وكونهم فى عيشة راضية ، ورؤيتهم أعداءهم فى نار حامية .

وفى (ألهاكم التكاثر) ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم .

وشرَّفه فى (العصر) بمدح أمته بثلاثة : الإيمان ، والعمل الصالح ، وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصى بالحق والصبر .

وشرَّفه فى سورة (الهمزة) بوعيد عدوه بثلاثة أنواع من العذاب [١] : ألا ينتفع بدنياه ، وينبذ [٢] فى الحطمة ، ويغلق عليه .

وشرَّفه فى سورة (الفيل) أن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ، وجعلهم كعصف مأكول .

وشرَّفه فى سورة (قريش) [بأن راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه] [٣] : تآلف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم .

وشرَّفه فى (الماعون) بذم عدوه بثلاث : الدناءة ، واللؤم فى قوله :

---

(١) **فى المطبوعة** : « أشياء » ، والمثبت من تفسير الرازى .

(٢) **فى المطبوعة** : « ويعذبه » ، وفى (ظ) : « ويقيد » ، والمثبت من تفسير الرازى .

(٣) **فى المطبوعة** : « بثلاث » وما بين المعقوفين إضافة لازمة من تفسير الرازى .

﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون : ٢ ، ٣) وترك تعظيم الخالق فى قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ (الماعون : ٤ – ٦) وترك انتفاع[1] الخلق فى قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (الماعون : ٧) .

فلما شرَّفه فى هذه السور بهذه الوجوه العظيمة **قال** : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ أى : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة فى هذه السور ، التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ (الكوثر : ٢) وإما بالمال و وهو قوله ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وإما بإرشاد العباد إلى الأصلح ، وهو قوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون : ١ ، ٢) الآيات ، فثبت أن هذه السورة كالتتمَّة لما قبلها .

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعًا بقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلى آخر السورة ، ويبطل أديانهم[2] ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ؛ لأن الطعن على الإنسان فى دينه أشد عليه من الطعن[3] فى نفسه وزوجه[4] ، وذلك مما يجبن عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلا إلى فرعون واحد فقالا : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ (طه : ٤٥) ومحمد صلَّى الله عليه وسلم مرسل إلى الخلق جميعًا ، فكأن كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر الله فى إزالة الخوف الشديد تدبيرًا لطيفًا ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن

---

(١) **فى المطبوعة** : « نفع » وفى (ظ) : « انفاع » ، والمثبت من تفسير الرازى .

(٢) **فى المطبوعة** : « أذاهم » تحريف ، والمثبت من (ظ) وهو فى تفسير الرازى .

(٣) فى تفسير الرازى : « الفسق » .

(٤) فى تفسير الرازى : « أرواحهم وأموالهم » .

جملته أيضًا : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهرتهم[1] بالعداوة ، والصدع بالحق ، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم .

ثم ذكر بعد سورة (الكافرين) سورة (النصر) فكأنه تعالى يقول : وعدتك بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراءة من معبوداتهم[2] ، فلما امتثلت أمرى أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة الأتباع ، بدخول الناس فى دين الله أفواجًا .

ولما تمَّ أمر الدعوة والشريعة ، شرع فى بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصورًا على الدنيا ، فليس له إلا الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة (تبت) وإمَّا أن يكون طالبًا للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التى تنتقش فيها صور الموجودات .

وقد ثبت أن طريق[3] الخَلْق فى معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال : أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف ، ومنهم من عكس[4] ، وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التى هى أشرف ، فبدأ بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، فى سورة (الإخلاص) ، ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته فى (الفلق) ، ثم ختم بذكر مراتب النفس

---

(١) فى **المطبوعة** : « مجاهدتهم » ، والمثبت من تفسير الرازى وكذا فى (ظ) .

(٢) فى (ظ) : « معبودهم » .

(٣) فى (ظ) : « طرائق » .

(٤) طريق الجمهور يترتب عليه : أن تكون المخلوقات دليلاً على وجود الخالق ، وطريق الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلاً على وجود خلقه ، الأول معرفة صعودية ، والثانى معرفة نزولية .

الإنسانية فى (الناس) ، وعند ذلك ختم الكتاب . فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة [المُودَعَة] [١] فى كتابه المكرم ! هذا كلام الإمام [٢] .

ثم قال فى (الفلق) : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه أمر الإلهية فى سورة (الإخلاص) ، ذكر هاتين السورتين عقبها فى شرح مراتب الخلق على ما قال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [٣] .

فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات [و] [٤] أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة [٥] ، والجثمانيات [٦] ، فلا جرم قال فى المطلع : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (الفلق : ١ ، ٢) .

ثم [من الظاهر أن] [٧] الأجسام إما أثيرية أو عنصرية والأجسام [٨] كُلُّها خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلال [٩] والفطور ، على ما قال : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (تبارك : ٣) .

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهو فى تفسير الرازى .

(٢) تفسير الرازى (٨/ ٧٠٤) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) **الكثيفة** : أى الغليظة والثخينة ، وكثر مع الالتفاف والتَّراكُبِ فهو كثيف وكُثاف . **انظر** : « المعجم الوسيط » (كثف) (٢/ ٨٠٨) .

(٦) **الجثمانيات** : الأجسام أو الأشخاص التى لا تميل إلى الحركة . **انظر** : « المعجم الوسيط » (جثم) (١/ ١١١ ، ١١٢) ، وفى (ظ) : الأجسام « الجسمانيات » كذا ، والعبارة التى فى تفسير الرازى هى : « وإنما سمى عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق ؛ لأن الخلق هو التقدير والمقدار من لواحق الجسم فيما كان الأمر كذلك » (٨/ ٧٦٢) .

(٧) ما بين المعقوفين إضافة من تفسير الرازى .

(٨) **فى المطبوعة و(ظ)** : « أبدية و » تحريف وناقصة ، والمثبت من تفسير الرازى .

(٩) **فى المطبوعة** : « الاختلافات » تحريف ، وفى (ظ) : « الاختلالات » والمثبت من تفسير الرازى .

وإما عنصرية ، فهى[1] إما جمادات ، فهى خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والأنوار عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق : ٣) .

وإما نبات ، والقوة العادلة هى التى تزيد فى الطول والعمق معًا ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث فى العقد[2] .

وإما حيوان ، وهو محلُّ القوى التى تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق : ٥) .

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهى المستعيذة[3] ، فلا يكون مستعاذًا[4] منها فلا جرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها فى سورة (الناس) مراتب ودرجات النفس الإنسانية . انتهى[5] .

ولم يبين المراتب المشار إليها ، وقد بَيَّنَها ابن الزملكانى فى أسراره[6] **فقال** : إضافة « رب » إلى « الناس » تُؤْذِنُ بأن المراد بالناس : الأطفال ؛ لأن الربَّ من رَبَّه يربُّه ، وَهُمْ إلى التربية أَحوجُ ، وإضافة « ملك » إلى « الناس » تؤذن بإرادة الشباب به ، إذ لفظ « ملك » يؤذن بالسياسة والعزة [والقوة][7] ، والشبان إليها أحوج وإضافة « إله » إلى « الناس »

(١) **فى المطبوعة و(ظ)** : « وهى » ، والمثبت من تفسير الرازى وهو الصواب والأنسب .
(٢) **فى المطبوعة و(ظ)** : « العقدة » والمثبت من تفسير الرازى .
(٣) **فى المطبوعة و« ظ »** : « المستفيدة » تحريف ، والمثبت من تفسير الرازى .
(٤) **فى المطبوعة و« ظ »** : « مستفادًا » تحريف ، والمثبت من تفسير الرازى .
(٥) **انظر** : « مفاتيح الغيب » (تفسير الرازى) (٨/ ٢٧٢) وما بعدها .
(٦) هو كتاب « نهاية التأميل فى أسرار التنزيل » خط (٤٧١) تفسير تيمور بدار الكتب المصرية .
(٧) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب ، وقوله : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس : ٥) يُؤْذِنُ بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالبًا عن الشُّبَه [1] ، وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس : ٦) يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار ، وهم شياطينُ الإنس الذين يوسوسون لهم ، والله تعالى أعلم [2] .

* * *

تم بحمد اللَّه تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه - نفعنا اللَّه ببركاته ، وأمدنا من نفحاته - : فرغت من تأليفه يوم الأحد ، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلى العظيم ، وحسبنا اللَّهُ ونعم الوكيل .

* * *

(١) **لطيفة** : قال الإمام الرازى فى تفسيره : « إن المستعاذ به فى سورة الفلق مذكور بصفة واحدة وهى : أنه رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهى : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، وأما فى هذه السورة (الناس) فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهى : الرب ، والملك ، والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهى **الوسوسة** ، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب فى السورة الأولى (الفلق) : سلامة النفس والبدن ، والمطلوب فى السورة الثانية (الناس) : **سلامة الدين** ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين - وإن قلَّت - أعظم من مضار الدنيا - وإن عظمت - ، **انظر** : « مفاتيح الغيب » للرازى (٨/ ٧٦٣ - ٧٦٤) ، و« كشف المعانى فى المتشابه المثانى » لابن جماعة (٤٣٣ - ٤٣٤) ، « ونظم الدرر » (٣/ ٣١٠) .

(٢) ذكر تاج القراء الكرمانى هذه المعانى مختصرة فى « أسرار التكرار فى القرآن » ص ٢١٥ ، ولم ينسبها إلى أحد ، ولم يشر ابن الزملكانى إلى الكرمانى رغم تأخره عنه .

الفهارس الفنية

فهرس الحديث النبوى والآثار

فهرس الأعلام

* * *

فهرس أسماء الكتب

* * *

- **المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية** ، لابن حجر .
- **معانى القرآن** ، للنحاس ، ت : محمد على الصابونى - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- **مفاتيح الغيب (المشتهر بالتفسير الكبير)** ، للإمام الرازى ، وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود - القاهرة - ١٢٨٩هـ .
- **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** ، لابن تغرى بردى - القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٤٩م .
- **نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور** ، لبرهان الدين إبراهيم البقاعى - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- **نكت الانتصار لنقل القرآن** ، للباقلانى .
- **وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام** ، للسخاوى ، ت : بشارعود ورفاقه - بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- **وفيات الأعيان** ، لابن خلكان ، ت : محمد محيى الدين - القاهرة ١٩٤٨م .
- **يتيمة الدهر** ، للثعالبى ت : محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٦م .

* * *

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٨٥١ / ٢٠٠٢

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـ ١١٢٣١